عدنية شبلي

فريق
متميزون
E-BOOK

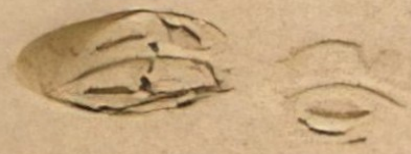

تفصيلٌ ثانويّ

دار الآداب

رواية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

تفصيل ثانوي

رواية..

الكاتبة: عدنية شبلي

نبذة عن الرواية..

"آب 1949, يخيّم قائدُ كتيبة عسكريّة مع جنوده في بقعة من الصحراء النقب, يُشتبه في أنها ممرٌّ يسلكه المتسلّلون العرب. بعد أكثر من خمسة عقود, تنطلق فتاةٌ موظفةٌ فلسطينيٌّة في رحلة صوب النقب ساعيةً إلى كشف ملابسات حادثة جرت في ذالك المعسكر, مستعينةً بتفاصيل ثانويّة شتّى.

عدنيّة شبلي اديبة فلسطينيّة, حازت روايتها "مساس" و "كلّنا بعيدٌ بذات المقدار عن الحبّ" جائزة مؤسسة عبد المحسن القطّان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ـ ١ ـ

لم يكن هنالك ما يتحرَّك عدا السراب. مساحات شاسعة جرداء تعاقبت حتى السماء مرتجفة تحت وقعِه بِسُكون، فيما كاد ضوءُ شمس العصر الحادّ أنْ يمحوَ الخطوط التي رسمت مرتفعاتها الرمليَّة الباهتة الصفرة. كان كلّ ما يمكن تمييزه من تفاصيل هذه المرتفعات حدودًا واهنة التَوَتْ على غير هدى في انحناءات وانعطافات متباينة، تخلَّلتها ظلال رفيعة لنبات البلّان الجافّ وللحجارة التي رقّطت التلال. عدا ذلك، لا شيء على الإطلاق، فقط امتداد هائل لصحراء النقب القاحلة، التي جثم فوقها قيظ شهر آب.

الإشارة الوحيدة على وجود حياة ما في المحيط كانت أصوات عواء متباعدة وجلبة الجنود المنهمكين في تجهيز المعسكر، والتي تهادت إلى مسمعه، فيما جال بنظره عبر الناظور، معاينًا المشهد المنبسط أمامه من مَوْضِعِه فوق إحدى التلال. وعلى الرَّغم مِنْ لَسْعِ الضوء الساطع لبصره، تابع مجرى الدروب الضيِّقة في الرمال وأخاديدها برويَّة، متوقِّفًا بين كلّ حين وآخر عند إحداها، مديمًا النظر فيها لبرهة أطول. أخيرًا، أزاح الناظور عن عينيه، مسح العرق عنه، وضعه في الحقيبة المخصَّصة له، ثم شقّ طريقه داخل هواء العصر القويّ المشدود، عائدًا باتِّجاه المعسكر.

حين وصلوا هنا، عثروا على سقيفتين وبقايا جدار سقيفة نصف مهدَّمة، هي كلّ ما نجا من المكان بعد القصف العنيف الذي تعرَّض له في بداية الحرب. لكن الآن، بجانب هاتين السقيفتين، انتصبت خيمةُ القيادة والخيمة الرئيسيَّة، بينما صوتُ دقّ الأوتاد والقضبان من أجل نصب الخيم الثلاث التي سيأهلها الجنود، كان يملأ الفضاءَ. وقد أبلغه نائبه رئيس العرفاء، الذي بادر للقائه لدى عودته، بأنَّهم أزالوا جميع الركام والحجارة من المنطقة؛ وحاليًّا، تعمل مجموعة من الجنود على ترميم الخنادق. عقّب هو أنَّ عليهم إتمام كافَّة التجهيزات قبل حلول الظلام، ثم طلب منه إبلاغ رقباء الفرق وبعض العرفاء والجنود الأقدم في الفصيلة، بالحضور لاجتماع جانبيّ في خيمة القيادة في الحال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملأ ضوء شمس العصر فتحة الخيمة، ممتدًّا عبرها إلى داخلها لينبسط فوق الرمل، مبيِّنًا النتوءات الصغيرة العديدة التي شكّلتها أقدام الجنود على سطحه. افتتح هو الحديث شارحًا بأنَّ مهمّتهم الرئيسيَّة أثناء تواجدهم هنا، ستكون، بالإضافة إلى ترسيم الحدود الجنوبيَّة مع مصر ومنع المتسلِّلين من اختراقها، تمشيط القسم الجنوب ـــ غربي من النقب وتنظيفه من بقايا العرب، فهنالك معلومات من مصادر عسكريَّة جوِّيَّة تُفيد بوجود تحرُّكات لهم ولبعض المتسلِّلين، كما أنَّهم سيقومون بجولات استطلاعيَّة يوميَّة لاستكشاف المنطقة والتعرُّف عليها عن كثب. وقد تستغرقهم كلّ هذه العمليَّة بعض الوقت، إلَّا أنّهم سيبقون مرابطين هنا إلى أن يستَتِبّ الأمن بالكامل في هذا الجزء من النقب. كذلك، سيُجْرون تمرينات يوميَّة

ومناورات عسكريَّة مع بقيَّة الجنود للتدرُّب على سبل القتال في ظروف صحراويَّة والتأقلم معها.

استمع الحضور إليه متتبِّعين حركة يديه فوق الخريطة المنبسطة أمامهم، والتي بدا موقع المعسكر فوقها نقطة سوداء صغيرة بالكاد يمكن تمييزها داخل مثلَّث رماديّ كبير. وإذ لم يعلِّق أيّ منهم على ما قيل، ساد السكونُ الخيمةَ لحظات، حوّل هو خلالها نظره من الخريطة إلى وجوههم الواجمة التي تصبَّب منها العرق، وراحت تتلألأ بِفِعْل الضوء القادم عبر فتحة الخيمة. عاد يُكمل حديثه منبِّهًا إيَّاهم إلى أنَّه عليهم التشديد على الجنود، وبخاصَّة مِمَّن انضمُّوا حديثًا إلى الفصيلة، على العناية بعتادهم وبزيِّهم العسكريّ؛ وفي حال نقص أحدهم أيّ معدّات أو ملابس، عليهم إبلاغه مباشرة. كذلك عليهم تذكيرهم بضرورة الحفاظ على نظافتهم الشخصيّة وحلاقة ذقونهم يوميًّا. ثم، قبل أن يفكّ الاجتماع، طلب من السائق وأحد الرقباء وعريفين ممّن كانوا حاضرين، بأن يجهِّزوا أنفسهم للخروج معه بعد قليل في جولة استطلاعيَّة أوَّليّة في المنطقة.

قبل الجولة، عرّج على إحدى السقيفتين التي اتَّخذها مسكنًا له، حيث باشر بنقل أغراضه، التي كوّمها في السابق قرب المدخل، إلى إحدى زاويا الغرفة. بعدها، حمل صفيحة معدنيَّة كانت بين الأغراض وسكب منها الماء في وعاء صغير، ثم أخرج من داخل حقيبة قماشيَّة على شكل كيس منشفةً، بلَّلها بالماء المصبوب في الوعاء، ومسح بها وجهه مزيلاً العرق عنه. عاد وغسلها من جديد، ثم خلع قميصه، ومسح منطقة الإبطين. ارتدى قميصه ثانية، وبعد أن انتهى من تزريره، غسل المنشفة جيِّدًا وعلّقها على أحد المسامير المدقوقة في الحائط. ثم حمل الوعاء إلى خارج السقيفة، سكب محتواه من المياه الوسخة فوق الرمل، وعاد به إلى الغرفة، وضعه بجانب بقيَّة أغراضه في أحد أركانها، وخرج.

كان السائق يجلس في مقعده خلف المِقْوَد، وبقيَّة المجموعة مِمَّن طلب منهم الانضمام إليه يقفون حول المركبة، وحين غدا على مقربة منهم، اعتلى هؤلاء القسم الخلفيّ منها، بينما اتَّجه هو إلى المقعد الأماميّ بجانب السائق، الذي عدّل من جلسته، قبل أن يمدّ يده إلى زرّ المفتاح ويشغِّل المحرِّك ليستولي هديره الصاخب على الفضاء.

انطلقوا غربًا، شاقّين طريقهم بين التلال الشاحبة الصفرة المترامية في كلِّ صوب، فيما راحت تَتْبعُهم سحب كثيفة من الرمل، التي انبثقت من تحت إطارات المركبة واندفعت عاليًا، حاجبة المشهد خلفهم كُلِّيَّةً. وقد كان منها ما يُصيب الجالسين في المؤخّرة، ما حدا بهم إلى إغلاق أعينهم وأفواههم، في محاولة لتفادي دخول الغبار إليها. ولم تكن أمواج السحب هذه بأشكالها المتباينة لتهمد، إلَّا بعد توارِي المركبة بعيدًا وتلاشي صوت محرِّكها بالكامل. عندها، كانت الرمال تعود وتحطّ بتؤدة على التلال، مخفّفة من حدَّة الخطّين المتوازيين اللذين خلّفتهما عجلات المركبة فوقها.

بلغوا خطَّ الهدنة مع مصر، حيث تفقّدوا شريط الحدود دون أن يرصدوا أيّ محاولات لاختراقه. ومع اقتراب الشمس من خطّ الأفق، بعد أن كان الحرّ والغبار

قد نالا منهم، أمر السائق بالعودة إلى المعسكر. خلال تلك الجولة، لم يصادفوا أيّ كائن سواهم في المنطقة، على الرَّغم من التقارير التي تحدّثت عن ثمَّة تحرُّكات فيها.

وصلوا المعسكر قبل حلول الظلام، مع أنَّ زرقة السماء في الجهة الشرقيَّة أوشكت على التلاشي داخل العتمة، التي لاح فيها التماع واهن لبضعة نجوم. كانت التجهيزات في المكان لم تنته بعد، فأعلن هو، حال نزوله من المركبة، بأنَّه يجب إتمام كلّ شيء قبل الجلوس إلى مائدة العشاء، عندها نشطت حركة الجنود، الذين أخذت خيالاتهم تدور في أنحاء المكان بِهِمّة وبسرعة أكبر من ذي قبل.

اتّجه بعدها إلى سقيفته التي قبعت داخلها ظلمة حالكة، فوقف وسطها للحظات، قبل أن يعود إلى الباب ويفتحه على مصراعيه، لتخفّ حدَّة العتمة في السقيفة قليلاً. تناول المنشفة المعلّقة على الحائط، والتي كانت قد جفّت تمامًا، بلَّلها بقدر من الماء الذي سكبه فوقها مباشرة من الصفيحة المعدنيَّة، وأخذ يمسح العرق والغبار عن وجهه ويديه. انحنى ثانية فوق أغراضه وتناول قنديلاً، رفع زجاجته، ثم وضعه على الطاولة دون أن يشعل فتيله، وترك السقيفة. ومع أنَّه غاب في الداخل لبضع دقائق فقط، كانت السماء الآن مرقَّطة بالعديد من النجوم، كما أنَّ العتمة قد غلّفتها بالكامل، لدرجة بدا معها أنَّ الليل هبط على المكان بغتة. وفي تلك الأثناء أيضًا، عادت خيالات الجنود تتلكَّأ، وأصواتهم تصدح داخل الليل الكحليّ الذي تسلَّل إليه بريقُ نور المصابيح المضاءة، القادم من فتحات وشقوق خيم الجنود والخيمة الرئيسيَّة.

شرع هو يجول بين مرافق المعسكر، متفقِّدًا مجرى العمل فيها، وبخاصَّة عمليَّة ترميم الخنادق وتهيئة مناطق التدريب. بدا سير الأمور على ما يرام، عدا أنَّ الساعة كانت قد تجاوزت الثامنة مساء، وهم في العادة يجتمعون لتناول وجبة العشاء في الساعة الثامنة بالضبط. لكنَّه لم يمضِ الكثير من الوقت حتى اتَّجهوا جميعًا إلى الخيمة الرئيسيَّة، ليجلسوا حول الموائد الطويلة.

بعد العشاء مباشرة، قصد هو سقيفته يقوده إليها ضوء القمر المكتمل والنجوم المتناثرة فوق خطّ الأفق الداكن. جهّز نفسه للنوم، ثم أخمد فتيل القنديل واستلقى فوق السرير دافعًا الغطاء بعيدًا عنه، تاركًا جسمه مكشوفًا بالكامل، فقد كانت حرارة الجوّ التي أثقلت الغرفة شديدة؛ ومع ذلك نام مباشرة. كان يومًا مديدًا وشاقًّا على الجميع: ٩ آب ١٩٤٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيقظته حركةٌ ما فوق فخذه اليسرى. فتح عينيه على ظلمة حالكة وحرّ شديد في الغرفة. كان جسمه ينضح عرقًا. هنالك كائن تحت نهاية سرواله بقليل، تحرّك ثانية إلى الأعلى ثم توقّف. واصل طنين الفراغ يملأ الفضاء، يتخلّله من حين إلى آخر صوتٌ خافت لحراك الجنود الموكلين بحراسة المعسكر، وصفق الريح لسقوف الخيم، وعواء كلب بعيد وربَّما رغاء جِمال.

بعد برهة من الجمود، دفع برأسه إلى الأمام وبظهره إلى الأعلى في آنٍ واحد وبرفق. مع ذلك، تحرّك الكائن من موضعه، فعاد وجمد هو في مطرحه، إلى أن حوَّل بصره باتِّجاه ساقه؛ لكنَّ العتمة القاتمة لم تُبيِّن له ما الذي كان فوقها، مع أنَّه صار بالإمكان الآن تمييز ظلّ الأثاث والأغراض في الغرفة، وأوتاد الخشب التي اتّكأت عليها ألواح السقف، فقد تسرّب عبر الشقوق إلى السقيفة ضوءٌ كامد، كان مصدره القمر. فجأة، انقضّ بيده على الكائن وخلعه عن فخذه بعيدًا، ثم أسرع إلى القنديل الموضوع على الطاولة وأشعله، ولحظة انبعث اللهيب من فتيله، باشر يطوف به فوق الفسحة الممتدَّة بين السرير والطاولة. وإذ لم تبدُ فيها حركة إلَّا تمايُل ظلال بعض الحصى المنثور على الأرضيَّة إثر دوران القنديل فوقها والتدقيق فيها، وسّع دائرة بحثه لتشمل السرير، ثم تَحْتَه، فَزوايا الغرفة، وقرب الباب، ثم حوْل حقيبته وصندوق العدَّة، وبقيَّة أغراضه، ثم الجدران وأعلاها باتِّجاه السقف، فالفراش ثانية، وقرب حذائه، ثم نَفَضَ ملابسه المعلّقة على المسامير المدقوقة في الحائط، وتحت السرير مرَّة أخرى، ثم أرضيَّة الغرفة بأكملها وبتأنٍّ، بما في ذلك زواياها، فالجدران والسقف، وأخيرًا مساحة ظلّه الذي كان يتقافز حوله ويتنقّل من جهة إلى أخرى على غير هدًى. ثم هدأ، فَهَدأ الضوء معه، كما الظلال في الغرفة. بعدها، قرَّب القنديل من فخذه التي انبعث منها إحساس خفيف بالاحتراق، فبانت تحت نوره نقطتان صغيرتان محمرّتان. يبدو بأنَّ الكائن كان أسرع منه، ولدغه قبل أن يطيح به بعيدًا.

أطفأ المصباح، ركنه بجانب صندوق العدَّة، ورجع إلى فراشه، دون أن ينجح في العودة إلى النوم، فقد أخذ الإحساس بالاحتراق المنبعث من موضع اللدغة فوق فخذه يتفاقم تدريجيًّا، ليتحوّل مع حلول الفجر إلى ما يشبه سلخ الجلد عن اللحم.

ترك فراشه أخيرًا متَّجها إلى الركن حيث تجمّعت أغراضه، يرقِّطها ضوء شمس الصباح الذي سقط فوقها متسلِّلاً عبر الثقوب في ألواح السقف. ملأ الوعاء المعدنيّ بالماء، تناول المنشفة المعلّقة بأحد المسامير، ثم غمسها فيه قبل أن يعصرها ويمسح بها وجهه وصدره وظهره ومنطقة الإبطين. ارتدى قميصه ثم بنطاله الذي رفعه حتى أعلى الركبة، ليتوقّف هناك هنيهة متأمِّلاً موضع اللدغة فوق فخذه. كان قد تكوّن الآن ورمٌ خفيف حول النقطتين اللتين تحوّلتا إلى سواد، فيما الألم ينبعث منهما. رفع سرواله حتى النهاية واضعًا نهاية القميص تحته، ثم شدّ حزامه حول خصره مثبِّتًا إيَّاه عند العلامة البائنة فوق قماشه. غسل المنشفة، أعادها إلى موضعها السابق فوق المسمار، ألقى نظرة شاملة ومتأنِّية على الحيطان والسقف والأرضيَّة، وغادر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنهوا جولتهم الاستطلاعيَّة ذلك الصباح مع دنوّ الشمس من منتصف السماء، حين لم يعد بمقدورهم تحمّل رمضها، ولا تحمّل الجلوس في المركبة أكثر، والتي باتت أجزاؤها تلسع الواحد فيهم حال مسّها لشدّة حرارتها. ما قبل ظهيرة ١٠ آب ١٩٤٩.

كان الجنود في المعسكر يستكينون إلى المناطق المُظِلة الضيِّقة بمحاذاة الخيم، فالمساحات الفسيحة التي انبسطت تحت الشمس مباشرة وامتصَّت كلّ ذرَّة رمل فيها حرارة الأشعَّة المسلّطة فوقها منذ الصباح، حالت دون إمكانيَّة تواجدهم فوقها. أمَّا هو، فقد دفعه المغص الحادّ الذي انتابه أثناء الجولة، لا القيظ، مباشرة إلى سقيفته حال أن ترجّل من المركبة، دون التوقُّف عند خيمة القيادة أو تفقُّد الأوضاع في المعسكر.

كان الماء الوسخ بعد اغتساله في الصباح لا يزال راكدًا في الوعاء. حمله إلى الخارج، وأفرغ محتواه فوق الرمل قريبًا من السقيفة. ثم ملأه ثانية بالماء النظيف الذي سكبه من الصفيحة. خلع ملابسه عدا سرواله الداخليّ، ثم تناول المنشفة المعلَّقة بأحد المسامير، بلّلها بالماء، وباشر يمسح بها جسمه. بدأ بوجهه، ثم تحوَّل إلى رقبته، فَصَدْره، وما استطاع الوصول إليه من ظهره. غسل المنشفة مجدَّدا، قبل أن ينتقل إلى مسح ذراعيه وإبطيه. كانت ساقاه آخِرَ ما مسح، مستثنيًا موضع اللدغة، التي تفاقم الاحمرار حولها وحجم الورم. بعدما غسل الفوطة جيِّدًا وعلقها فوق المسمار، حمل صندوقًا صغيرًا كان مركونًا في زاوية الغرفة مع أغراضه، وعاد نحو الطاولة. وضعه فوقها، ثم فَتَحَه وتناول من داخله معقِّمًا وبعض القطن والشاش. وضع شيئًا من المعقِّم فوق القطن، وانصرف ينظِّف منطقة اللسعة بحذر شديد. حين انتهى، لفّها بالشاش، ثم اتَّجه إلى السرير واستلقى فوقه. كان تشنُّج حادّ قد بدأ يستولي على ظهره وكتفيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع أنّها بدت لهم مجدية في ما يخصّ استكشاف المنطقة والتعرُّف على خباياها، لم تأتِ جولة بعد الظهر بأيّ حصيلة هي الأخرى فيما يتعلّق بالعثور على متسلِّلين. لَزِمَتْ كثبانُ الرمل الرتيبة التي أحاطت بهم من كلّ صوب سكونَها، دون أن تفصح عن أثر ما فوقها سوى لعجلات مركبتهم.

بينما في المعسكر، مع تقدّم النهار واستمرار احتدام حرارة الجوّ، واصل الجنود زحفهم البطيء خلف الظلال، لاحقين بها خلال تنقّلها فوق ما امتدّ من مساحات بمحاذاة الخيم. وقد توجَّه هو لدى عودته إلى مجموعة من بينهم، ضمّت بضعة جنود قدامى، وذلك بالرَّغم من تفاقم حدّة المغص الذي انتابه قبل الظهيرة. بادر بإطلاعهم على تفاصيل جولتَيْ اليوم، قبل أن يستفسرهم حول مدى تأقلمهم مع ظروف المكان وحرارة الجوّ خاصَّة أثناء التدريبات التي يقومون بها. عَقب الاستماع إلى ردودهم المقتضبة، استأنف يؤكِّد على ضرورة تواجدهم هنا والخضوع لهذه التدريبات، كونها لا تقلّ أهمِّيَّة عن مشاركتهم في مهامّ حربيَّة خارج نطاق المعسكر. فلوجودهم هنا عامَّة وصمودهم، بغض النظر عن انخراطهم في عمليَّات عسكريَّة محدَّدة، دورٌ مركزيّ في السيطرة على المنطقة وتثبيت خطّ الحدود الجديد مع مصر وتأمينه من محاولات اختراق المتسلِّلين. إنُّهم الفصيلة الأولى والوحيدة التي تصل هذه النقطة الأقصى جنوبًا منذ إعلان الهدنة، وقد أحيلت إليهم المسؤوليَّة الكاملة في الحفاظ على أمنها.

في طريقه إلى سقيفته، عرّج على خيمة القيادة، حيث كان نائبه ورقباء الفرق والسائق يرتاحون هناك في أعقاب جولة بعد الظهر، وأعلمهم بأنَّهم سينطلقون في جولة أخرى قبل المغيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم أخرى، فأخرى في اليوم التالي، فالتالي، غير أنّ كلّ ما كشف المكان عنه هو زوابع رمليَّة وسحب غبار، بدا همّها ملاحقتهم والعبث بهم. مع ذلك، لم تفلح هذه الزوابع في إيقاف عمليّات بحثهم، ولا في أن يحبط سكون التلال الجرداء من عزيمته على العثور على ما تبقَّى في المنطقة من عرب، كما القبض على المتسلِّلين من بينهم، والذين كانوا يسرعون بالاختفاء داخل الكثبان الرمليَّة، حالما يسمعون هدير المركبة. فقد كانت تلوح أمامه أحيانًا خيالاتهم السوداء الرفيعة وهي تتراقص بين التلال، لكنْ عندما تهدر المركبة نحوها، ثم يبلغونها، لا يعثرون على أحد منهم.

كان القيظ، أو العتمة، وحدهما فقط القادرين على إنهاء تلك المطاردات، حيث يطلب من السائق التوجُّه بهم نحو المعسكر حين لا يعود بإمكانهم تحمُّل حرارة الشمس، أو حين بدأت تُظلم.

ومع حلول الظلام، يخِفّ ثِقَل الهواء وكثافته، وتأسر الجوّ درجة محتملة من الحرارة، ينشط إثرها الجنود الذين منذ مجيئهم هنا لم تترك غالبيَّتهم المعسكر، ولا حتى ظلال الخِيَم التي يلوذون بها حال انتهائهم من تدريباتهم العسكريَّة اليوميَّة. وهكذا، في المساَء، تروح أصوات أحاديثهم وضحكاتهم تدوِّي في المنطقة، حتى الساعة العاشرة، حين يخلدون إلى خيمهم للنوم، فيما يقصد هو سقيفته.

وفي سقيفته، تكون العتمة حالكة قويَّة، تتسرّب إلى فضائها، من وقت إلى آخر، أصوات تبدو للوهلة الأولى همهمات ومقاطع جلبة مبهمة، إلى أن يصبح بالإمكان تدريجيًّا تمييز صفق الرياح لقماش الخيم فيها، وخطى الجنود الذين يقومون على حراسة المعسكر ونداءاتهم المباغتة، يتخلّلها جميعًا صوت طلقات بعيدة، أو نباح كلاب، وربَّما رغاء جِمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عرقان، يتنفَّس الهواء الثقيل في الغرفة بصعوبة، فيما هو جالس إلى الطاولة المنثور فوقها بضع خرائط، تتناهى إليه تلك الأصوات البعيدة، والتي فاقمت من حدَّة الصداع في رأسه. لم يكن قد خلع ملابسه ولا حتى حذاءه، الذي أغرقت رطوبة العرق المتجمِّع فيه أصابع قدميه المحبوستين داخله منذ الصباح. كان الوقت يقترب من منتصف الليل: ١١ آب ١٩٤٩. سحب يديه ببطء باتِّجاه حافَّة الطاولة، ثم ثنى ساقيه تحتها ونهض عن الكرسيّ واقفًا، إلَّا أنَّه عاد واتَّكأ عليه بسرعة ساندًا جسمه المتهاوي بكلتا يديه، قبل أن يسحب نَفَسًا عميقًا. اتَّجه إلى الصندوق في ركن الغرفة، ثم انحنى فوقه، وضع يديه على قِفْلَيهِ، وفتحهما رافعًا غطاءه. دفع بيده اليمنى داخله وأخرج علبة رصاص. وقف ثانية وعاد إلى الطاولة، وضع علبة الرصاص فوقها وانصرف يعبِّئ محتواها في جيوب صدريّته بيدين مرتعشتين، بينما أخذ العرق

يقطر من حدود منابت شعر رأسه فوق صدغيه ووجنتيه. حين فرغ، تناول بندقيّته التي كانت مركونة إلى الطاولة، وضعها على كتفه، وترك السقيفة.

بدت العتمة في الخارج غير شديدة، مع أنَّ القمر أقلّ اكتمالاً مِمّا كان عليه قبل ليلتين. توقّف برهة عند بوَّابة المعسكر بانتظار أن يفتحها الجنود الواقفون على حراستها، ثم انطلق غربًا باتِّجاه التلال حالكة السواد التي ابتلعته بأناة داخلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مشى طويلاً تحت وطأة المغص الحادّ الذي قبض على بطنه والتشنُّج في ظهره. وقد جعلت خطواته تضطرب وتوازنه يختلّ كلّما غافلته الرمال التي امتدَّت تحت قدميه بمنخفض أو مرتفع صغير. مع هذا، لم يتوقّف عن المسير نحو العتمة التي انبثقت من بين طيّاتها من حين إلى آخر أصوات عويل بعيدة، إلى أن باغته منحدر قويّ رمى به حتى نهايته.

حين كفّت الرمال عن سحبه أخيرًا، همّ بالوقوف، لكنَّ تَشَنُّجًا حادًّا قبض على أطرافه، أوقعه فوق الرمل ثانية. عندها، عدّل من وضعيَّة جسمه قليلاً ليصبح في هيئة جلوس، ثم أخذ نَفَسًا عميقًا حدَّ من تهدُّج أنفاسه، دون أن يُزيل الانقباض في صدره.

وقد بقي جالسًا ساكنًا في مكانه، عيناه مثبّتتان بالمدى الممتدّ أمامهما وأشبعه الظلام بالسواد، فيما يده اليسرى فوق فخذه تتحسّس موضع اللسعة من خلف سرواله. بعد وقت، حين رجع نبض قلبه يبطؤ بعد أن كان قد تسارع إلى درجة الاختناق أثناء سقوطه، دار برأسه ناحية اليمين، ثم ناحية اليسار. كان وحده بين التلال. رفع بصره باتجاه النجوم التي تبعثرت في أنحاء السماء حتى قمم التلال، القمر يشقّ طريقه بينها نحو خط الأفق الغربيّ الداكن. ثم أزاح يده عن ساقه وحطّها بجانبه على الرمل، دافعًا بجسمه إلى الأعلى كي ينهض، غير أنَّ جسمه فَقَدَ توازنه على الفور وكاد يسقط، فاستدرك نفسه بسرعة واقفًا، واتجه مباشرة إلى التلَّة التي انتصبت أمامه وبدأ يتسلّقها، ليعود السواد يغشي عينيه إلى أن وصل قمّتها. وهناك عند القمة، وقف هنيهة، ثم دار حول نفسه مجيلاً نظره في الفضاء المظلم الذي اكتنفه، تلامس أذنيه بتردّد أصوات العويل المتفرِّقة وقد راحت التلال تكرِّر صداها، بحيث لم يعد من الممكن تحديد جهة صدورها. بدت كما لو أنها كانت جزءًا من العتمة التي ربضت فوق هضاب الرمل المنبسطة في كل صوب.. ثم رجع يمشي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمرّ في مسيره حتى آخر الليل، إلى أن بدأ الظلام ينجلي وطيّات التلال تتكشف تحت ضوء الفجر. وقد ساد الجوَّ عندها نفحةٌ من البرد الذي اخترق ملابسه وتسلّل إلى جسمه قارصًا عظامه، فأخذته رعشة قويَّة جعلت جسمه ينتفض بقوّة وتنفّسه يضطرب من جديد، ما أدَّى به إلى التوقُّف عن المشي. حاول أن يسحب أنفاسه على مهل، إلَّا أنّ حلقه أصدر بغتةً صوت سعال مكبوت وتجشُّؤ، دفعه إلى أن يحني رأسه ويبدأ بالتقيُّؤ.

عندما انتهت نوبة الغثيان تلك، تناول مطارة المياه المعلقة في خاصره بيدين مرتجفتين، أزاح الغطاء عنها ثم قرّبها من فمه، ومضمض الماء فيه عدَّة مرَّات. بعد أن بصقه، وهدأ قليلاً، رجعت الأصوات الآتية من خلف التلال تتردَّد، وبوتيرة أعلى من ذي قبل. كان كما لو أنَّ ضوء الفجر بدّد بُعده عنها على حين غرَّة. فعاد تنفُّسه يضطرب وجسمه يرتعد، فيما سارع ينقل بصره بين أنحاء التلال الموحشة التي طوّقته من جميع الجهات. ثم انطلق مباشرة صوب تلك الأصوات، التي أخذت تعلو وتعلو، كما نبض قلبه، كلّما قصرت المسافة بينهما، حتى صار بالإمكان تمييز بعضها. عندها، كفّ عن المسير للحظات، ثم عاد يخطو، رغم الارتجاف الذي استولى عليه، نحو الأصوات، التي لم يكن مصدرها سوى جنود الفصيلة. ربع ساعة كان مقدار الوقت الذي استهلكه للعودة إلى المعسكر الذي كان قد غادره قبل عدَّة ساعات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غشى ضوءُ الصبح الواهن قممَ التلال المحيطة بالمعسكر، وقد تناثر في أنحائه الجنود الذين استيقظوا للتوّ، بعضهم يخرج من الخيم أو يختفي داخلها، بينما آخرون أخذوا أماكنهم في الصفِّ بمحاذاة خزَّان المياه، حاملين مناشفهم على أكتافهم أو حول أعناقهم، بانتظار دورهم لاستخدام الحنفيَّة. وحين اجتاز البوَّابةَ الرئيسيَّة عابرًا بهم باتّجاه سقيفته، شدّ كلٌّ منهم قامته قبل أن يرفع يده اليمنى بخفَّة نحو رأسه، مصوِّبًا عينيه في الفراغ، لتأدية التحيَّة له.

كانت عتمة دافئة تقبع داخل السقيفة. ردّ الباب خلفه وتقدّم نحو الطاولة، خلع حزام الرصاص ووضعه عليها، ثم دنا من السرير وجثا فوقه بعد أن ركن البندقيَّة على الحائط إلى يمينه. وقد بقي جامدًا في موضعه لبعض الوقت، انحسرت أثناءه العتمة رويدًا رويدًا ووَضَحَتْ تفاصيل الغرفة. كان التشنُّج الآن يُثْقِل جميع أنحاء جسمه. انحنى ببطء باتِّجاه قدميه، وبدأ يخلع حذاءه الذي حوَّل غبارُ الرمل لونَه من البنِّيّ إلى الأصفر الباهت. ثم تناوَل الحذاء بكلتا يديه ونهض دافعًا بجسمه إلى الأعلى بجهدٍ جعل وَجْهَه ينقبض، واتَّجه إلى الباب، فتحه ووقف عند مدخل السقيفة، وباشر يضرب كلّ فردة بالأخرى، مُكوِّنًا هالة من الغبار تدريجيًّا حوله. بعدها، رجع إلى الداخل، دفع بالحذاء تحت الكرسيّ، خلع قميصه وبنطاله ووضعهما على حافَّته، ثم توجَّه إلى السرير، جلس على حافَّته، وانصرف يحدِّق في اللفافة التي غطّت موضع اللسعة فوق فخذه اليسرى. كان المرهم الأصفر قد تسرّب إلى ظاهر الشاش الأبيض. عاد ورفع رأسه، وأخذ يطوف بعينيه في أرجاء الغرفة على مهل، عدا عن المواضع التي اخترق فيها ضوءُ الصبح الشقوقَ، حيث حوّل بصره عنها بسرعة. حين انتهى من معاينة الغرفة، حنى ظهره ببطء نحو الفراش واستلقى فوقه. وعلى الفور، سارعت تتقافز أمام عينيه بقع سوداء، ثم قطع الأثاث، بدءًا بالطاولة فالحزام فوقها، فالصندوق، والوعاء، والمسامير في الحائط، وملابسه التي على الكرسيّ، فحذاؤه تَحْته ورقع الضوء المُتناثِرة في ألواح السقف والباب، ثم المعسكر، والكثبان المُظلِمة، فالمنحدر الذي سقط عنه والرمال وهو يحاول التشبُّث بها، فالقمر والأفق القاتم، وملابسه التي على الكرسيّ والمسامير في الحائط واللفَّافة وهو يحلّها عن

ساقه، فوَثبَ من موضعه في السرير. ثم عاد وقعد فوقه. كانت اللفافة في موضعها. أخيرًا، مدّ يديه نحوها ببطء وباشر يفكّها. وقد كانت كلّ يد تتلقّف شريط الشاش من اليد الأخرى مع كلّ نصف استدارة للفّافة، التي أخذ لونِ المرهم الأصفر فوقها يُعاوِد الظهور كلّ مرَّة في موضعٍ بِعَيْنه، لكنْ أشدّ غمقًا عن سابقه، حتى حلّ الشريط بالكامل. وما إن حوَّل بصره نحو موضع اللدغة، حتى هبّ من مكانه دافعًا برأسه إلى الأعلى، بالغًا ريقه بسرعة عدَّة مرّات، ثم عاد يحدِّق في شريط اللفَّافة الذي تدلّى من يده اليمنى. عدا عن آثار المرهم التي رقّطته على طوله، كان نسيجه قد اضطرب في العديد من المواضع. تَقدّم نحو الطاولة، وضع الشريط فوقها، قرَّب حزام الرصاص، ثم خفض رأسه ورجع يتأمّل الورم الذي تكوّر فوق فخذه ممتلئًا بالقيح الأصفر في وسطه، تطوِّقه حلقة حمراء فحلقة زرقاء، فسوداء.

استهلك نصف ما تبقَّى من ماء في الصفيحة لتنظيف جسمه، ثم انتقى طقم ملابس نظيفًا من حقيبته، كما تناول من صندوق العدّة المركون إلى جوارها لفّافة شاش جديدة وبعض القطنٍ ومعقِّم جروح وعلبة المرهم. سكب بعضًا من المعقِّم فوق القطن وانصرف ينظّف منطقة الورم بحذر شديد، ثم غمس سبّابته في علبة المرهم ومسَّد ما علق بها على موضع اللسعة. وقد أعاد الكرّة مرَّة أخرى، فثالثة ورابعة، لدرجة أوشك المرهمُ فيها على أن يحجب الورمَ. وبعد أن ضمّد موضع اللسعة مستخدمًا لفّافة الشاش الجديدة، ارتدى طقم ملابسه النظيف ووضع حذاءه، ثم جلس على حافَّة السرير وأسلم أذنيه إلى الأصوات القادمة من الخارج، لتشاركه العتمة الواهية التي انتشرت في أنحاء الغرفة.

عجّت المكان في تلك الأثناء، ضوضاءٌ أثارتها حركة الجنود النَشِطة التي عادة ما تأتي مرَّتين في اليوم، في بداية النهار وفي نهايته، حين تأذن حرارة الجوّ لهم بممارسة التدريبات العسكريَّة والتجوُّل في أنحاء المعسكر. فجأةً قفز من موضعه فوق السرير مقتربًا من ركن في السقف، فاتحًا عينيه قدر ما أتاح له تورُّم أجفانه أن يفعل، ثم جعل يحدِّق فيه. بعد قليل، اتَّجه نحو الباب وفَتَحَه على وِسْعِه، لِيَلِجه ضوء حادّ سقط على أرضيَّة الغرفة عند فتحة المدخل دون أن يتقدّم إلى جوفها وينيرها، كذلك عَلَت أصوات الجنود المنبعثة من جهة الخيم. ثم رجع إلى جهة السقف التي كان يتأمّلها مِنْ قبل، ووقف أمامها دافعًا برأسه أقرب ما يمكن إليها مدقِّقًا النظر فيها مرَّة أخرى. إلّا أنَّه لم يستمرّ في ذلك طويلاً، فبعد لحظات، خفض رأسه بسرعة إلى الأسفل، وانصرف يدلِّك عنقه فيما هو يرمش عينيه بكثافة. عاد نحو زاوية الغرفة القريبة من الباب، وانحنى فوقها. استمرّ جاثمًا في مكانه، يتأمّل رقعة بعينها لبعض الوقت، إلى أن حوَّل بصره باتِّجاه الركن الذي تكدّست فيه أغراضه، ثم اتَّجه حابيًا نحوه. وحين صار على مقربة شديدة من صندوق العدّة، سحبه إلى الأمام ونظر خلفه. كان عنكبوت ذو أقدام رفيعة يلتصق بجزئه الخلفيّ. مدّ يده اليمنى إليه وسحقه، قبل أن يواصل حَبْيَهُ نحو السرير. كانت بضعة عناكب صغيرة تربض تحته، حاكت بخيوطها الدقيقة بيتًا علقت داخله خنفساء رماديَّة ميِّتة، معسها بحذائه حين سحبها إلى الخارج. عاد وانحنى إلى الأسفل مقرِّبًا رأسه من الأرضيَّة، معاينًا

إيَّاها بتؤدة. وفي لمح البصر، قفز إلى مواضع مختلفة فيها، سحق خلالها حشرات صغيرة عدّة كانت تدبّ فوقها.

استأنف دورانه في الغرفة، الآن يمشِّط حيطانها بعينيه برويَّة. عنكبوتان وفراشة؛ أبادها، ثم صعد فوق الطاولة ثانية، ودفع برأسه إلى الأعلى نحو السقف، مصوِّبًا بصره باتِّجاه الركن الأوَّل، غير أنَّ بقعًا وخطوطًا من العتمة راحت تتراقص أمام عينيه، تلاها سواد تامّ، حتى اختلّ توازنه وكاد يسقط، فنطّ بسرعة إلى الأسفل، سحب الكرسيّ وارتمى فوقه ملقيًا برأسه على حافَّة الطاولة، ثم أطبق جفنيه المحمرَّين.

وفي غضون ذلك، اقتربت حشرة صغيرة من إحدى حوافّ الأرضيَّة، وانزلقت في المتَّسع الحاصل بينها وبين الجدران، فارّة إلى الخلاء.

بعد وقت، فتح عينيه وأخذ يرمش جفنيه من جديد، ثم رفع رأسه عن الطاولة، وقرّب راحتيه منه ضاغطًا على صدغيه بوجهٍ متجهِّم. ثم تسلّل إلى فضاء الغرفة رغاء جِمال وعواء كلب، لكنَّ أصوات الجنود وهم يتدرَّبون ويدورون في أنحاء المعسكر عادت تغلبها. رجع وأطبق جفنيه مغلقًا عينيه. وقد بقي جالسًا فوق الكرسيّ، تحيطه أصوات شتَّى، تباين عُلوّها وبُعدها وحدّتها، في ذلك الصباح الباكر، ١٢ آب ١٩٤٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى صعد، برفقة رقيبين وثلاثة جنود، المركبةَ. وقد لاحق بصرُه قدمَه اليمنى حين ارتقَتْ درج المركبة ثم تركَتْها، قبل أن تندفع أسفل المقعد الأماميّ حيث هوى بجسمه. إلى يساره، استقرّ محوِّل الغيارات وساعات القياس الخمس التي اهتزّت عقاربها بعصبيَّة، ثم عادت البقع السوداء لتحجب بصره لبضع لحظات، ومرَّة أخرى لوقت أطول.

غادروا هذه المرَّة دون أن يفتحوا أيًّا من الخرائط التي اعتادوا دراستها في السابق قبل الانطلاق في مثل هذه الجولات. كان هو قد أشار فحسب إلى السائق بأن يقودهم نحو جهة بعينها. «نحو تلك التلَّة،» قال باقتضاب مصوِّبًا يده باتِّجاه تلّة رسمت مقطعًا من خطّ الأفق.

وفيما التهمت عجلاتُ المركبة الرملَ تحتها قبل أن تنثره بصخب في الهواء ليتحوّل إلى سحب غبار طويلة جعلت تتلكّأ خلفهم كالعادة، انصرفوا هم يرقبون التلال التي تعاقبت بغير كلل على جانبيْ الدرب. لكنْ ما إن وصلوا تلك التلّة التي قادهم نحوَها، حتى أشار إلى أخرى حاذت الأفق ووقعت في خطّ مستقيم مع التي بلغوها للتوّ. وعلى هذا المنوال، واصلوا جولتهم متنقِّلين بين قمم التلال، إلى أن توقّفوا قبل إحداها لتفقُّد بعض الآثار فوق الرمل.

وقد ساد هدوءٌ شبه تامّ المكانَ ما إنْ سكن هدير المحرِّك وترجَّلوا من المركبة، خلا من أصوات خافتة أصدرها مسيرهم على الرمل أثناء مجرى بحثهم. حين فرغوا، شربوا بعض الماء وعادوا إلى المركبة للانطلاق ثانية نحو «تلك التلّة» التي صوّب

هو بيده نحوها من على مقعده الأماميّ، قبل أن يسحب نَفَسًا عميقًا أرغمه على أن يغمض عينيه. وعندما رجع وفتحهما، كانت التلّة التي أشار إليها تستتر خلف بقع سوداء أخذت تتقافز أمام عينيه مثل حشرة مجنونة. وبغتة، رفع يده باسطًا كفّه في الهواء بحدّة، دافعًا الجنود إلى التزام الصمت على الفور. بعد هُنَيْهة، عاد وأومأ إلى السائق بأن يشغِّل المحرِّك، لكنْ قبل أن يفعل هذا، علا نباح كلب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحت من بعيد أشجار الدوم والبطم ونبات القصب التي انسلّ من بين جذوعها الناحلة نبعُ مياه شحيح. وما إن توقّفت المركبة قبالتها، حتى وثب هو من مقعده راكضًا باتّجاهها، سالكًا منحدرًا رمليًّا دفعه إلى الأسفل برفق، فيما لحق به بقيّة أفراد المجموعة. لكنَّه لم يلتفت نحوهم البتّة، إنّما صوّب ناظريه إلى أجمة الأشجار أمامه، حيث صدر من خلفها الآن إضافة إلى عواء الكلب، رغاء جِمال. وحالما حطّت قدماه عند نهاية المنحدر، غادر نحوها مخترقًا أغصانها التي سرعان ما انحسرت، كاشفة عن نفرٍ من العرب الواقفين حول النبع بجمود. وقد التقت عيناه بعيونهم التي انفتحت على آخرها، كما عيون الجِمال التي نَفَزَتْ من مكانها فارَّة بضع خطوات ما إن دوَّى عواء الكلب عاليًا. ثم خرج صوت إطلاق رصاص كثيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هدأ عواء الكلب أخيرًا، وساد المكان شيء من الهدوء. كان الآن يعلو فقط نحيب مكبوت لفتاة تكوّرت كخنفساء داخل ثيابها السوداء، وحفيف أوراق أشجار الدوم وأعواد القصب التي راح الجنود يجوبون بينها. وبينما قام هؤلاء بتمشيط المكان بحثًا عن أسلحة ما، انصرف هو يتأمَّل روث الماشية في تلك البقعة الخضراء المحاطة بكثبان رمل جرداء لانهائيَّة. ثم أخذ يطوف بين الجِمال المرميَّة فوق الأرض، أشبه بتلال صغيرة كساها العشب اليابس. كان عددها ستَّة. وعلى الرَّغم من أنَّها جميعها كانت ميِّتة، وراحت الرمال تمتصّ دماءها إلى جوفها بتؤدة، صدرت حركات طفيفة من أطراف بعضها. وقد استقرّ بصره هو على ضمَّة عشب يابس استلقت قرب فم أحدها، وتمّ اقتلاعها من جذورها، التي ما زالت حبيبات الرمل عالقة بها.

لم يعثروا على أيَّة أسلحة في المكان. مشّط الرقيبان والجنود المنطقة عدّة مرّات دون جدوى. التفَتَ هو أخيرًا إلى الكتلة المتكوِّرة السوداء التي ما زالت تئنّ، ثم غار عليها ممسكًا بها بكلتا يديه وهزّها بقوَّة، فعاد نباح الكلب يعلو، بينما ازداد علوّ نحيبها هي ليختلط بنباحه، فدفع برأسها نحو الأرض، مُطْبِقًا يده اليمنى على فمها، والتي التصقت بها لزوجة اللعاب والمُخاط الذي سال من أنف الفتاة والدموع من عينيها، كما اجتاحت رائحتُها أنفَه، مُجبِرة إيَّاه على أن يدير رأسه إلى الناحية الأخرى. لكنّه ما لبث أن عاد واستدار نحوها، قبل أن يقرِّب يده الثانية من فمه واضعًا سبّابته على شفتيه، محدِّقًا في عينيها مباشرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان غالبيَّة الجنود يجلسون في الامتداد المظل الضيّق بمحاذاة الخيم لدى وصولهم المعسكر، وحينما أنزلوا الفتاةَ والكلبَ من القسم الخلفيّ للمركبة، ترك بعضهم الظلال وتقدّموا باتِّجاههم. وقد حوّل هو نظره من منطقة الخيم إلى الرمال التي انعكست فوقها أشعَّةُ شمس ما قبل الظهيرة الساطعة، ثم إلى المركبة، ما دفع بدرجات مختلفة من الضوء إلى عينيه، مغشيَّة إيَّاهما ببقع سوداء ورماديَّة، زاد من حدّة كثافتها تقافزُ الذباب من حولهم. حطّ بصره أخيرًا على نائبه الذي كان قد بادر بسؤاله حول ما عساهم أن يفعلوا بالفتاة. لم يجب هو بشيء لبضع لحظات. بقي فكّاه ملتصقين بعضهما ببعض، إلى أن خفض رأسه نحو الرمل مطبقًا جفنيه وسحب بضعة أنفاس قصيرة، ثم ردّ بأنَّ عليهم وضعها حاليًّا في السقيفة الثانية، وإيكال أحد الجنود حراستها، وسيقرِّرون لاحقًا في شأنها. على أيَّة حال، لا يمكنهم إطلاق سراحها في هذه المنطقة المُقْفِرة. حين رفع رأسه ثانية، صوّب بصره نحو الجنود الذين كانوا قد تجمّعوا حولهم الآن، وقال لهم بصوت واضحٍ مهدِّدٍ، إنّه وإيّاهم أن يقربوا الفتاة. ثم تركهم قاصدًا سقيفته.

ولحظة دخل السقيفة، اتّجه نحو السرير واستلقى فوقه، قبل أن يغلق جفنيه المتورِّمين ليأسُرَه سبات عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتح عينيه وتحرّك ببطء وبحَذَر من مكانه، وجلس على حافَّة السرير. بعد برهة، رفع يده اليسرى إلى وجهه ومسّد وَجْنَتَيه بباطنها، ثم وقف على ساقيه متَّجها نحو الباب وفتحه على وسعه، فنفذ بعض الضوء إلى فضاء السقيفة المُعْتِم، تسلّل من حول جسمه حين أطلّ برأسه عبر فتحة الباب متفقِّدًا المكان. لم ينم طويلاً، على الأقلّ ليس بما يكفي من الوقت كي ترجع الظلال لتنفرد بمساحة أكبر من الرمال. دار عائدًا إلى الداخل وشرع يطوف في أنحاء الغرفة، يمشِّط جدرانها وزواياها وسقفها بعينيه، اللتين التقطتا حركة ثلاث عناكب هشَّة، معسها بيده على الفور. توجّه عقبها إلى الركن الذي جمع فيه أغراضه، سكب قليلاً من الماء في الوعاء المعدنيّ، ثم تناول من صندوق العدَّة أدوات الحلاقة ومرآة صغيرة علّقها فوق أحد المسامير، وانصرف يتأمّل انعكاس وجهه فيها. على مرِّ الأيَّام الثلاثة الماضية، ازدادت بشرته اسمرارًا في بعض الأماكن واحمرارًا في أخرى، وبخاصَّة حول الأجفان، رغم مواظبته على ارتداء قبَّعته، التي بان حدّها الأماميّ واضحًا على جبينه.

وضع قليلاً من صابون الحلاقة فوق خدَّيه وذقنه، ثم بلّل الفرشاة بالماء النظيف المسكوب في الوعاء ورفعها إلى وجهه، وأخذ يدور بها فوقه حتى غدت بشرته ناصعة البياض. وحالما فرغ، عاد يزيل الصابون عنه بالموسى، في البداية من منطقة الوجنتين، وبعدها من منطقة العنق. ومع نهاية كلّ حركة له، كانت تعلق بالموسى رغوة الصابون التي راح لونها يميل بالتدريج من الأبيض إلى البنِّيّ الفاتح، بعد أن اختلط بها شعر الذقن المحلوق الباهت الصفرة، أشبه بذرَّات الرمل. ومن ثم يسحب الموسى على حافَّة الوعاء، مزيلاً ما تجمّع فوقه من رغوة، والتي

تنزلق بدورها في الوعاء ببطء شديد، حتى تصل سطح الماء، وتبدأ بالتفتّت هناك على رِسْلِها، فيما هي تطفو فوقه.

بعد انتهائه من حلاقة ذقنه، حمل الماء الوسخ الذي تجمّع في الوعاء إلى الخارج وسكبه فوق الرمل بعيدًا عن جهة المدخل، ثم رجع إلى السقيفة وداری الباب خلفه، لكنْ ليس حتى النهاية، مُمَكِّنًا قدرًا من الضوء من الانسلال خلفه إلى الداخل. سكب الماء من الصفيحة في الوعاء من جديد، خلع ملابسه وفكّ الضمَّادة دون النظر إلى موضع اللدغة، الذي كان قد استحال الآن إلى ما يشبه الجرح المتعفِّن، مع أنَّه لم يعد يُصْدِر أيّ نوع من الألم، وبدأ يستحمّ في السقيفة، مُحجِمًا مرَّة أخرى عن الاستحمام مع بقيَّة الجنود.

بلّل أوَّلاً المنشفة بالماء من الوعاء، دعك قطعة الصابون بها، ثم مسح وجهه، رقبته وأُذُنَيه. عاد وغسل المنشفة، ومسح بها بطنه، وما استطاع الوصول إليه من ظهره، قبل أن يغسلها من جديد وينتقل إلى ذراعيه وإبطيه، فساقيه، ماسحًا المنطقة المحيطة بموضع اللدغة فوق فخذه برقّة شديدة، مرَّة أخرى، دون أن ينظر إليها. مع ذلك، ارتقى اللعاب إلى حلقه في الحال، فدفع رأسه إلى الأعلى بسرعة وجعل يتنفّس بعمق ورَوِيّة.

بعد مَسْحِ منطقة الحوض، غَسَل المنشفة جيِّدًا بالصابون وعلّقها على الحائط، ثم رجع إلى السرير واستلقى فوقه، تاركًا جرحه دون تضميد. نهض ثانية بعد وقت، واتَّجه نحو صندوق العدّة في ركن الغرفة، وتناول منه لفّافة شاش جديدة وبعض القطن والمعقِّم. سكب بعضًا من المعقِّم فوق القطن ونظّف الجرح على عجلة، ثم لفّه بالشاش دون شدِّه كلِّيَّة فوق ساقه. أعاد المعقّم إلى الصندوق، ثم مال نحو حقيبة القماش التي استلقت بجانبه، وأخرج منها طقم ملابس نظيفًا فاحت منه رائحة طيِّبة، وإن كانت واهنة، نفذت إلى أنفه وقبعت داخله للحظات قبل أن تختفي من جديد.

انصرف يرتدي ملابسه التي احتكّ قماشها الجافّ النظيف بجلده، فيما راح يجول بعينيه المحمرّتين الجدرانَ والأرضيَّة والسقف، مُغْمِضًا إيَّاهما بين حين وآخر. كان الهدوء تامًّا من حوله. بعدما وضع حذاءه، اتَّجه صوب الباب الذي كان مواربًا، فتحه على آخره، ووقف هناك يحدِّق في المشهد الذي امتدّ أمامه، تشغله في غالبيّته السماءُ، وفي طرفها الغربيّ الشمس، ثم الرمال، فالخيم والسقيفة الثانية، والكلب الراقد على بعد مسافة قصيرة منها ملقيًا برأسه على أطرافه الأماميَّة، ينظر باتِّجاه باب السقيفة الموصد، الذي جلس أحد الجنود قربه يحرسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شبّ الكلب واقفًا على أطرافه نابحًا ما إن بات على مقربة من السقيفة الثانية، غير أنّه لم يلتفت إليه، إنَّما توجّه إلى الجنديّ الحارس، وأمره أن يفتح الباب. حين عبر إلى الداخل، حيث لم يتمكّن الضوء الذي رافقه من دحر العتمة في السقيفة، استدار على الفور عائدًا، وطلب من الحارس الذي وقف ينتظر في الخارج أن يُحضر الفتاة ويلحق به.

بعد أن ابتعد بضع خطوات، علا نباح الكلب مجدّدًا، فأبطأ من سرعة مشيه، دون أن يلتفت إلى الخلف؛ خفض رأسه قليلاً فحسب باتِّجاه ظلِّه الذي ارتمى فوق الرمل، زاحفًا أمامه بخفّة خلال مسيره مجتازًا المعسكر باتِّجاه خزّان المياه، فيما انصرف الحارس ينفِّذ ما طُلِب منه. كان الوقت عصرًا.

عندما وصل الخزّان، دار نحو الجنديّ الحارس الذي كان يمشي في أعقابه ممسكًا بذراع الفتاة، والكلب يتبعهما، وطلب منه أن يلزم مكانه، ثم جال بنظره باتِّجاه خيم الجنود، الذين غادر عدد منهم أماكن جلوسهم في ظلال الخيم واتَّجهوا صوب الخزَّان هم أيضًا، يتابعوه ما أخذ يجري أمامهم بنظرات ثابتة. وقد أمر هو أوّل من استقرّ بصره عليه بأن يحضِر خرطوم مياه ويوصله بالحنفيَّة، فانطلق ذلك الجنديّ على الفور نحو مركز المعسكر إلى النقطة التي جُمِعَت فيها المعدَّات. استمرّ جمع الجنود المتحلِّق من حولهم بنقل بصرهم منه وإلى الفتاة بصمت، بينما راح هو يرقب الكلب الواقف على مقربة منه، قبل أن يحوِّل نظره باتِّجاه الخيم التي سابقت كثبان الرمل في امتدادها نحو السماء الباهتة الزرقة.

رجع الجنديّ بعد قليل يحمل خرطوم مياه التفّ حول ذراعه في حلقات متساوية، واتَّجه مباشرة نحو الخزّان، دافعًا بأحد طرفيه إلى فوَّهة الحنفيَّة. طلب الضابط منه إثرها أن يُحضر إليه الطرف الثاني، فرمى الجنديّ بلفّة الخرطوم إلى الأرض، لتنطلق خلفه فوق الرمل بسلاسة حينما تقدّم باتِّجاهه. ولحظة تسلّم الخرطوم، هبّ الضابط نحو الفتاة ونزع بيده اليسرى الغطاء الأسود عن رأسها، ثم عاد ودفع بتلك اليد وبيده اليمنى الممسكة بفوَّهة الخرطوم، إلى زيج ثوبها وشدّه بقوَّة في الاتِّجاهين المعاكسين، عندها شقّ السكونَ صوتٌ حادّ نجم عن تمزيق الثوب. ثم دار حول الفتاة جاذبًا الثوبَ معه حتى خلعه عنها تمامًا، ورمى به إلى أبعد ما يمكنه، بالإضافة إلى شتَّى الخِرَق التي وضعتها الفتاة على جسمها وجمعت في نسيجها رائحة روث الماشية، ورائحة حرِّيفة عادة ما يُحْدِثها البول وإفرازات الأعضاء التناسليَّة، ورائحة حموضة عرق قديم عَلَتْها رائحة عرق حديثة. وقد أخذ الهواء يعبق تدريجيًّا بكلِّ هذه الروائح النفّاذة، التي بقي منها ما هو عالق بجسم الفتاة، ما اضطرّه إلى أن يدير رأسه إلى هذه الجهة أو تلك بين كلّ فينة وأخرى، متفاديًا استنشاق الهواء في محيطها. أخيرًا، رجع بضع خطى إلى الخلف، وطلب من الجنديّ الذي أحضر الخرطوم وكان واقفًا قربه، أن يذهب ويفتح الحنفيَّة.

بعد لحظات، اندفع تيَّار المياه إلى الخرطوم، زائدًا من ثقله في يد الضابط، الذي أزاح إصبعه بغتة عن الفوَّهة وترك الماء يتدفّق عبرها فوق الرمل ويتسرّب بين ذرَّاته، محوِّلاً لونه إلى أقرب ما يكون بلون الرمل الراكد في الظلال. إلَّا أنَّه سرعان ما وجَّه الفوَّهة نحو الفتاة، لتبدأ المياه بالانسياب فوق جسمها.

انصرف يرشّها بالماء بقامة مقوّسة، متفاديًا قدر الإمكان أن يبلغه الرذاذ المتطاير في جميع الاتِّجاهات، فيما أخذ يدور حولها، محوِّلاً تدفّق المياه من بطنها إلى رأسها وظهرها وساقيها وقدميها، اللتين التصقت بهما حبيبات الرمل، ثم صعودًا إلى نصفها العلويّ ثانية. بعد أن بلّلها بالكامل، ممكِّنًا المياه من بلوغ جميع أنحاء

جسمها، حجب فوَّهة الخرطوم بإبهامه، ثم دار برأسه نحو حشد الجنود المتحلق حوله، وطلب من أوَّل جنديّ وقع عليه نظره أن يحضِّر قطعة صابون في الحال.

استأنف الجنود ينقِّلون بصرهم فيما بينهم وباتِّجاه الفتاة التي تكوّرت فوق الرمل ترتعد، حتى وصلتْ قطعة الصابون وانزلقت من يد الجنديّ إلى يد الضابط، فإلى الرمل عند قدميها. أشار هو نحو قطعة الصابون بيده اليمنى الممسكة بفوّهة الخرطوم، بينما أخذت اليسرى تحوم حول رأسه وصدره على التوالي. وقد بقيت هي جامدة لا تحرِّك ساكنًا، حتى علت بعض القهقهات المكبوتة من جهة الجنود. عندها صرخ نحوها بصوت حادّ، مصوِّبًا عينيه إلى عينيها مباشرة، آمِرًا إيَّاها أن تلتقط قطعة الصابون، وفي الحال خمدت قهقهات الجنود وهمهماتهم، وبقي لهاث الكلب يحفُّ الفضاء وحده. مدّت الفتاة يدها ببطء نحو قطعة الصابون، حتى التقطتها. كان الماء يرشح من جسمها، ثم استقامت قليلاً وشرعت تدير قطعة الصابون فوق رأسها، فصدرها، الذي راحت تغطِّيه رويدًا رويدًا طبقة رقيقة من رغوة الصابون البيضاء، مُخْفِية لبعض الوقت، سمرة جلدها واصفراره. في تلك الأثناء، أحال هو بصره نحو رقعة الرمل المبلول التي طوّقتها. لم تسِل المياه بعيدًا عنها بالمرَّة، إنَّما امتصّتها الرمال في محيطها المباشر. حين رفع رأسه إلى الفتاة من جديد، كانت رغوة الصابون تغطّي غالبيَّة جسمها، وبخاصَّة الجزء الأمامي منه. فأزاح إبهامه عن فوّهة الخرطوم لتتدفّق المياه عبرها مجدَّدًا، إلَّا أنَّه عاد وأسرع يضغط بإبهامه وسبّابته على طرف الفتحة مضيِّقًا إيَّاها، جاعلاً المياه تندفع بقوَّة أكبر وإلى مسافة أبعد، ثم صوَّبها نحو الفتاة.

باشر يزيل الصابون عن جسمها، أحيانًا دافعًا بالرغوة البيضاء إلى مناطق منه لم تكن قطعة الصابون قد طالتها، ذلك عبر توجيه الفوّهة وتيّار المياه المنساب عبرها. بعد أن أزال غالبيَّة الصابون عنها، حجب فتحة الخرطوم بإبهامه، ثم أمر بإغلاق الحنفيَّة دون توجيه كلامه إلى جنديّ بعينه. وفيما عَلَتْ جلبةُ المجموعة حوله من جديد، بقي الكلب واقفًا بتنبّه على أطرافه المشدودة، لسانه يهتزّ لاهثًا بعصبيَّة. بغتة، صاح الضابط بالجنديّ الذي كان في طريقه لإغلاق الحنفيَّة، وطلب منه التريّث قليلاً، ثم أزال إبهامه عن فوّهة الخرطوم وأخذت المياه تتدفّق عبرها مرَّة أخرى، هذه المرَّة نحو الكلب. لكن ما إن انهمرت المياه فوقه حتى فرّ الكلب هاربًا، فتعالت ضحكات الجنود، بينما ابتسم هو، ثم عاد وأمر الجنديّ بإغلاق الحنفيَّة. وحين توقّفت المياه، رمى بالخرطوم على الرمل.

كانت ملقاة على الرمل أيضًا، ليس بعيدًا عن الخرطوم، ملابس الفتاة المهترئة الممزَّقة، التي أبْلَت الشمس ألوانها، فبدت أقرب ما تكون إلى النبات الجافّ الميِّت.

أصدر من جديد أمرًا راح يتبارى بضعة جنود في تنفيذه، ولم يمضِ الكثير من الزمن حين رجع أحدهم حاملاً قميصًا، وآخر سروالاً قصيرًا، تناولهما هو منهما بيده اليمنى التي مدّها نحو الفتاة.

بقيت يده معلَّقة في الهواء، يتدلَّى منها القميص والسروال لبعض الوقت، إلى أن اقتربت منها يد الفتاة اليسرى، حينما حاولت اليمنى أن تغطِّي ما أمكنها من مقدِّمة

جسمها، والذي كانت الشمس في هذه الغضون قد جففت البلل عنه، عدا عن نقاط متفرِّقة من الماء بقيت في بعض أجزائه، كما في الجانب السفليّ من ثديها الأيمن حيث ظلّله جزؤه العلويّ. وقد تعلّق بصره به للحظات، ثم حوّله مرَّة أخرى نحو يدها. كانت يدها قريبة جدًّا من يده، فسارع يفتح يده، لكنْ قبل أن تمسك يدها بالملابس، وقع السروال والقميص على الرمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بارتدائها زيِّها الجديد، شابهت الفتاة في مظهرها بقيَّة أعضاء الفصيل الذين تجمهروا حولها، باستثناء شعرها الذي أبقى تجعّده وطوله على بعض الاختلاف. دار هو بعينيه بين الجنود، حتى وقعتا على الممرِّض، وكلّفه بمهمَّة جديدة: تعقيم شعرها وقصّه منعًا من انتشار القمل في المعسكر. ترك الممرِّضُ الحشدَ برفقة أحد الجنود، ليرجعا بعد دقائق، الممرِّض حاملاً حقيبة ومقعدًا صغيرًا، والجنديّ صفيحةً فاحت منها رائحة وقود. وضع الممرِّضُ الكرسيَّ على الأرض، فالحقيبة بجانبه، ثم اتّجه إلى الفتاة، سحبها من ذراعها وقادها نحو المقعد، ودفع كتفيها إلى الأسفل حتى تجلس عليه. انحنى فوق حقيبته وأخرج منها قفّازين، ارتداهما برشاقة، ثم أومأ إلى الجنديّ أن يُحْضِر إليه الصفيحة. تناولها منه، وباشر يسكب الوقود منها فوق شعر الفتاة، إلى أن غمره تمامًا. وضع الصفيحة جانبًا، ثم عاد يمسِّد جلدة رأسها بأناة، وبخاصَّة عند منابت الشعر خلف الأذنين وفي مؤخّرة الرأس بمحاذاة العنق. أخيرًا، تناول مشطًا ومقصًّا من حقيبته، ورفع عينيه إلى الضابط، مستفسرًا حول درجة القصر التي ينبغي عليه قصّ شعرها. أجاب الضابط حتى الأذنين، فجعل الممرِّض خطًّا فاصلاً بمساعدة المشط بين خصلات الشعر، كاشفًا إلى الضوء قدرًا من جلدة رأسها ناصعة البياض.

انصرف الجنود يرقبون شعر الفتاة وهو يتساقط حولها فوق الرمل بسكون، فيما أمسك الجنديّ الحارس وجنديّ ثانٍ بالكلب، وأخذا يمسِّدان فراءه الأصفر الفاهي بالوقود الذي سكباه فوقه من الصفيحة أيضًا. وقد عبرتْ جسمَ الضابط في تلك الأثناء رعشةٌ دامت للحظات، على الرَّغم من شمس العصر التي سلّطت أشعّتها الحارقة فوقهم مباشرة.

فرغ الممرِّض من عمليَّة قصّ شعرها في وقت قصير. عقّم المقصّ والمشط والكرسيّ عقب ذلك، فيما جمع أحد الجنود الشعر المقصوص المتناثِر فوق الرمل داخل خرقة، كوَّرها حالما انتهى، ووضعها فوق كومة ملابس الفتاة الممزّقة، ثم أضرم النار بها جميعًا بأمر من الضابط.

وقد بقيت مبعثَرة فوق الرمل، في منأى عن النار التي التهمت كومة الملابس، بضعُ خصلات شعر سوداء التَفّتْ في دوائر صغيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أُعيدت الفتاة إلى السقيفة الثانية، وعاد الجنديّ الحارس والكلب إلى موقعيهما السابقين أمام الباب، في حين تفرَّق حشد الجنود، منسحبين رويدًا رويدًا باتِّجاه ظلال

الخيم، تاركين خلفهم الضابط ونائبه ورقباء الفرق الثلاثة يتباحثون معًا. من الآن فصاعدًا عليهم توخِّي الحيطة بشكل استثنائيّ، وتنصيب مجموعات إضافيَّة من الجنود في نقاط مختلفة من المعسكر، توجُّسًا من قيام بعض العرب خلال الأسابيع القادمة بتنفيذ هجوم انتقاميّ ضدّهم بعد حملة اليوم. بالنسبة للفتاة، سيحضرها هو إلى مكتب القيادة الرئيسيّ، أو يتركها في إحدى التجمُّعات العربيَّة في أقرب فرصة تسنح له، إذ لا يمكنهم الاحتفاظ بها طويلاً. في هذه الأثناء، سيدعونها تعمل في مطبخ المعسكر.

بعد ذلك، ترك هو المجموعة متَّجها نحو البوَّابة الرئيسيَّة ومن ثم صوب التلال الغربيَّة، ليجري جولة تفقُّديّة سريعة، إلَّا أنَّ التشنُّج في أطرافه منعه من الابتعاد كثيرًا، فقد جلس فوق إحدى التلال القريبة، وراح يعاين المشهدَ الأصفر الأجرد الذي غلّفه الصمتُ، خلا من أصوات متبدِّدة للجنود وهم ينادون على بعضهم بعضًا أو يتضاحكون. ثم قفزت أمام بصره صورة الجمل الملقى فوق الرمل، بقرب فمه ضمَّة أعشاب مقلوعة من جذورها، فالفتاة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان قد غفا لبعض الوقت. فتح عينيه، عاد ينظر باتِّجاه المعسكر إلى يمينه، فيما امتدَّت يده اليسرى إلى الورم فوق فخذه، وراحت تتحسّسه من خلف البنطال. ثم نهض وبدأ يمشي باتِّجاه الشمس، مبتعدًا عن المعسكر. كانت الشمس الآن قريبة جدًّا من خطّ الأفق.

استمرّ في مسيره غربًا إلى أن تقلّصت الأصوات القادمة من جهة الخيم، لدرجة لم يعد يمكن سماعها. وحين اختفت تمامًا، هوى فوق إحدى الكثبان الرمليَّة وهو يلهث واللعاب يعتلي حلقه. سحب بضعة أنفاس بعمق، فيما تعلَّق نظره بامتداد الصحراء صوب الجهة الغربيَّة، متفاديًا النظر مباشرة إلى قرص الشمس. ما زالت حرارة الجوّ شديدة، مع أنَّ الساعة اقتربت من السادسة مساءً!

ثم اختفت الشمس خلف التلال، وهبّت نسمة خفّفت قليلاً من ثقل الهواء، كما التمع نجم بتردُّد فوق خطّ الأفق في الجهة الشرقيَّة، فوقف هو على ساقيه بجهد، ودار عائدًا نحو المعسكر، يسبقه نجم المساء ذاك، ثم صوت نباح الكلب الذي راح يتردّد في الفضاء، ويزداد ارتفاعه تدريجيًّا كلّما تقدّم في مسيره، وأخذت عتمة المغرب تتسرّب إلى السماء وتَكْمِدُ زُرْقَتها. مساء ١٢ آب ١٩٤٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الكلب ما زال ينبح حين وصل المعسكر، فقصد السقيفة الثانية في الحال، بحيث ازداد نباح الكلب حدّة ما إن صار قريبًا منها. خاطب الجنديّ الحارس مستفسِرًا إن كان كلّ شي على ما يرام، فردّ هذا بِـ أجل. وفجأة، ينفتح باب السقيفة، وتعبره الفتاة وهي تبكي وتبربر بكلمات متقطِّعة وغير مفهومة اختلط فيها نباح الكلب المستمرّ.

وفي ذلك الوقت من بعد الغسق، قُبَيل حلول الظلمة التامَّة، حين راح فمها يطلق لغة مغايرة عنهم، ارْتَدّت الفتاة لتصبح من جديد غريبة عنهم، بالرَّغم من منظرها

الشديد الشبه ببقيَّة الجنود في المعسكر.

إلى يمين السقيفة، لازم الجنديّ الحارس مكانه وقد أرخى بصره إلى الرمل، متجنِّبًا النظر باتِّجاه الضابط الذي راح يهزّ رأسه بِفُتور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمَرَ ذلك المساء بتجهيز وجبة احتفاليَّة بمناسبة نجاح جولتهم الصباحيَّة بعد جولات عدّة، لم يثمر البحث خلالها عن شيء. وفور أن جلس آخر جنديّ إلى مائدة العشاء في تمام الساعة الثامنة مساءً، وقف هو وحيّا جمع الجنود، ثم باشر يشيد بدورهم في الدفاع عن المنطقة وحمايتها، «فالجنوب لا يزال في خطر، وعلينا أن نفعل كل ما في وسعنا للصمود والبقاء فيه، وإلَّا سنفقده.

«علينا ألَّا نتوانى عن تكريس كلّ ما أوتينا به من قوّة وعزم في سبيل بناء هذا الشقّ من دولتنا اليافعة، وحمايته والحفاظ عليه للأجيال القادمة، ما يُلْزِمنا بأن نخرج للبحث عن العدوّ بدل انتظار ظهوره، «فمن ينوي قتلك، عاجله بالقتل».

«كما لا يمكننا الوقوف ومشاهدة مساحات شاسعة من الأراضي القادرة على استيعاب الألوف من أبناء شعبنا في المنفى، تحت وطأة الإهمال، أو ترانا غير قادرين على العودة إلى وطننا. فهذا المكان الذي يبدو بورًا الآن، لا شيء فيه عدا المتسلِّلين وبعض البدو والبعير، قد مرّ به أجدادنا منذ آلاف السنين. وإذا كان العرب، وفقًا لقانون العاطفة القوميَّة العقيم خاصّتهم، يرفضون فكرة عيشنا في هذه المنطقة واستمرُّوا في مقاومتنا، مفضّلين أن تبقى جرداء، علينا عندها أن نتصرّف كجيش، فلا حقّ لأحد فيها أكثر منّا، بعد أن أهملوها وتركوها مهجورة قرونًا طويلة، يستأثر بها البدو وقطعانهم. بل من واجبنا أن نمنعهم من التواجد هنا وطردهم نهائيًّا.. فالبدو عامَّة يقلعون ولا يزرعون، ومواشيهم تبتلع كلّ ما يمتدّ أمامها من خضرة، جاعلين المساحات الخضراء القليلة تتناقص يومًا بعد يوم. بينما نحن سنقوم بكلِّ ما في وسعنا من أجل أن نمنح الفرصة لهذه المساحات الشاسعة أن تزهر وتصبح أهلاً للعيش، عوضًا عن تركها، على ما هي عليه الآن، مجدبة غير مأهولة بالسكّان.

«وهنا بالتحديد سيتمّ اختبار قوَّة إبداعنا وريادتنا، حين نتمكّن من تحويل النقب إلى منطقة مزدهرة ومتحضِّرة، ومركز للتعلّم والتطوّر والثقافة، على غرار ما فعلنا في مناطق الشمال والمركز. فمع أنَّها حاليًّا تبدو قاحلة تمامًا، ستتراجع هذه المساحات الصحراويَّة تدريجيًّا مع غرس الأشجار وإنشاء المشاريع الزراعيَّة والصناعيَّة، حين يتمكّن أبناء شعبنا من العيش فيها. لكنْ، ليتمّ كلّ هذا، يجب أوَّلاً أن نقهر أشدّ أعداء هذا المكان ضراوة وضررًا به، وأن نوفِّر الحماية له قدر الإمكان. ووجودنا هنا هو نقطة البداية لتحقيق هذه الرؤية.

«إنَّنا، في هذا المكان المقفر المعزول الآن، فعلاً نشارك في معركة الوجود والبقاء في منطقة الجنوب. وبالتالي، نحن لا نؤدِّي مهمَّة عسكريَّة فحسب، بل وقوميَّة

أيضًا. يجب ألا نَترك النقب صحراءَ جرداءَ فريسة للقحل ولعبث العرب وحيواناتهم به.

«وهنا أذكِّركم بالعبارة التي وجدناها عند وصولنا إلى هنا على الجدار شبه المهدَّم، «ليس المدفع الذي سينتصر، إنَّما الإنسان»».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتشرت الكؤوس والصحون شبه فارغة فوق الطاولات مع اقتراب حفل العشاء من نهايته، بينما الجنود ما زالوا منشغلين بالحديث معًا والقهقهة بصوت عالٍ، محدثين حالة من الصخب والمرح لم يشهدها المعسكر خلال الأيَّام السابقة. كانت هذه المرَّة الأولى التي بدت فيها معنويَّات الجميع مرتفعة منذ أن حلُّوا بالمنطقة، وقد يكون للنبيذ دور في ذلك أيضًا، فرغم قِلَّتِهِ، تمكّن كلّ جنديّ من تناول بعضٍ منه هذه الليلة.

وفي حوالى الساعة التاسعة والنصف تقريبًا، وقف الضابط مرَّة أخرى وطلب من الجمع الهدوء. بعينين ووجه شديدي الاحمرار، ذكّرهم بالفتاة التي أحضروها اليوم معهم إلى المعسكر، وقال إنَّ هنالك بضعة جنود عبثوا معها. فسادَ صمت ثقيل، كتم حالة المرح التي سادت الخيمة حتى تلك اللحظة.

مضت بضع دقائق، لم ينبس خلالها أحد بكلمة، ما زاد من حدَّة التوتّر في أجواء الخيمة، إلى أن عاد يخاطبهم ثانية، مُعْلِنًا بأنَّه سيضعهم أمام خيارين، داعيًا إيَّاهم للاختيار: إمَّا أن يرسلوا بالفتاة إلى المطبخ للعمل هناك، أو أن يعبثوا بها جميعهم.

استمرّ الجنود في شدوهِهِم لبعض الوقت، مِنهم مَن راح يبحث بنظره عن إجابة عند الآخرين، أو يحوِّلونه بعيدًا عنهم في ارتباك وريبة، فلم يعرف أحد منهم تمامًا إن كان الضابط يعني ما يقول، أم أنَّه ينصب فخًّا للإيقاع بهم، أو قد يكون ثَمِلاً. لكنْ تدريجيًّا، علت أصوات متفرِّقة، تحوَّلت بسرعة إلى صياح جماعيّ هائج راح ينادي بالخيار الثاني.

استمرّ الدويّ والصخب يهيمنان على فضاء الخيمة، حين أخذ الجنود يخطِّطون في ما بينهم بحماس حول كيفيَّة اقتسام وقتهم مع الفتاة، مخصِّصين اليوم الأوَّل للجنود التابعين للحظيرة الأولى، واليوم الثاني لجنود الحظيرة الثانية، واليوم الثالث للحظيرة الثالثة، والسائق والممرِّض وفريق الصيانة والمطبخ مع الرقباء في مجموعة منفصلة.

أخيرًا، وقبل أن يرجع للجلوس في مكانه، قال بصوت واضح عالٍ إنّه إن مسّ أحدهم الفتاة، فعندها ستتحدَّث هذه، مشيرًا إلى بندقيّته التي ركنها إلى يمينه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عقب العشاء، اتَّجه مباشرة إلى السقيفة الثانية، وطلب من الجنديّ الحارس أن يُحضر الفتاة ويلحق به، ثم انطلقوا جميعًا، هو، وخلفه الجنديّ الحارس والفتاة، وخلفهم الكلب، نحو سقيفته. وقد عرَّج في الطريق إلى هناك، إلى النقطة التي

جُمِعَت فيها مختلف المعدّات في وسط المعسكر، ورجع بعد برهة يحمل سريرًا مطويًّا، سارع الجنديّ ليتناوله منه ويحمله بدلاً عنه.

عندما بلغوا سقيفته، تناول السرير المطويّ من الحارس وجلبه إلى الداخل، بينما مكث الآخرون في الخارج بانتظاره، حيث أدركهم بعد لحظات ضوء المصباح، ثم صوت تحريك بعض الأثاث في الغرفة.

ظهر الضابط بعد قليل عبر الباب، وطلب من الحارس أن يضع الفتاة قرب السرير في الجهة اليسرى من السقيفة، وبقي هو عند المدخل يحدِّق في العتمة التي تشكّلت حوله، يتخلَّلها صوت لهاث الكلب الذي وقف بجانبه. كانت النجوم ترتمي بأعدادها اللانهائيَّة مبعثرة في سماء الليل الصافية، حيث بدت أشدَّ صغرًا وأقلّ التماعًا هذه الليلة مقارنة مع الليالي السابقة، وأشبه بذرّات الرمل التي تناثرت على عتبة الباب وتلألأت بفعل ضوء المصباح الخافت، المنبعث من الداخل. ولم يلتفت نحو الجنديّ الحارس الذي كان قد خرج الآن ووقف خلفه، لكنْ حين دار بجسمه ولَحَظَه، اضطرَبَتْ حركته قليلاً. وقبل أن يغادر المكان، أمره بالتزام مكانه قرب الباب، وأن يمنع أيّ أحد من الدخول إلى السقيفة. سيعود هو بعد ساعة على الأكثر.

هبط المنحدر الرمليّ الصغير باتِّجاه الخيم، التي انبثقت منها أحاديثُ الجنودِ الخافتة إلى رحاب العتمة. ومع استواء الرمال، مال إلى جهة اليمين باتِّجاه البوَّابة الرئيسيَّة، وعَبَرَها مكمِّلاً مسيره صوب التلال القريبة، في جولة سريعة حول المعسكر.

بعد أن أكمل جولته متفقِّدًا المنطقة، وبلغ نقطة البداية التي انطلق منها، تربّع فوق الرمل مديرًا ظهرَه للمعسكر ووَجْهَه نحو التلال المنبسطة في كلِّ صوب، كُحليّة شديدة السكون. كانت الأصوات البعيدة التي راحت تتردّد خلال الليالي السابقة قد اختفت، كما خمدت أحاديثُ الجنود الآن. وفجأة، ازدادت حدَّةُ سواد الليل، فدار بعينيه الجاحظتين اللتين تفاقم تورّمهما نحو المعسكر. كانوا للتوّ قد أطفأوا الأضواء التي شعّت سابقًا من داخل الخيمة الرئيسيَّة، بعد أن فرغوا من أعمال التنظيف فيها عقب عشائهم الاحتفاليّ. ثم نَهَضَ، نَفَضَ ما علق به من رمل، ومشى عائدًا صوب المعسكر.

كان الجنديّ الحارس قرب الباب في الوضعيَّة ذاتها التي كان فيها حين تركه. قبالته يستلقي الكلب واضعًا رأسه على أطرافه الأماميَّة. بعد أن اطمأنَّ أنَّ كلّ شيء كان على ما يرام، سرّح الحارس من مهمَّته، طالبًا منه العودة ثانية في تمام الساعة السادسة صباحًا.

ثم مدّ يده باتِّجاه الباب وفتحه ليدخل، فداهم ظهرَه وأطرافَه التشنُّج بغتة، ما حدا بجسمه إلى التقوّس، إلَّا أنَّه استأنف دخوله السقيفة، حتى وصل الطاولة التي قرّبها مِن قَبْل إلى الحائط ليفسح مكانًا للسرير الثاني، ووقف عندها. كان الصمت مطبقًا، تعجّه رائحة حرّيفة قويّة، تغلبها رائحة الوقود. وبعد قليل، تسلّل صوت أنفاس مضطربة إلى فضاء الغرفة، تَبِعَه صوت حركة خفيفة في السرير.

بقي جامدًا في موضعه برهة من الزمن، حتى تمكنت يده من أن تستهدي إلى المصباح الموضوع فوق الطاولة وتشعله. وفي أعقاب ذلك، ظهرت الهيئة الجديدة للغرفة، مع إضافة السرير ونقل الطاولة والكرسيّ من مكانهما السابق، ما أدَّى إلى رسم أشكال جديدة من الظلال على الجدران والأرضيَّة.

باشر بإجراء فحصه الشامل للغرفة. بدايةً، قوائم سريره، ثم زوايا الصندوق، وخلف الحقيبة والأغراض، والزاوية إلى يسار الباب، فالباب، وقوائم السرير الثاني وأقدام الكرسيّ والطاولة، ثم زاوية الغرفة، والأرضيَّة والحيطان، والسقف وزواياه جميعها، حيث ظهر في إحداها عنكبوت صغير بظلال ضخمة. فسحب الكرسيّ، صعد فوقه، سحق العنكبوت، ثم نزل، جرّ الكرسيّ إلى موضعه السابق، وجلس فوقه. خلع حذاءه ودفعه تحت الكرسيّ، ثم وقف، خلع ملابسه، ووضعها عليه. اتَّجه إلى صندوق العدَّة، تناول منه علبة المرهم وضمّادة جديدة، وحملهما معه إلى السرير، جلس على حافَّته، ثم شرع يفكّ اللفَّافة عن فخذه. لكنْ قبل أن ينظِّف موضع اللدغة ويضع المرهم فوقها، استفحل التشنُّج في جسمه لدرجة منعه من التحرُّك أكثر. ترك المرهم واللفَّافة قربه على السرير، ثم دنا بجهد، ارتسمت معالمه على وجهه، من المصباح وأطفأه، ليُغِير الظلام الدامس على السقيفة ثانية. دفع ظهره بحذر نحو الفراش متمدِّدًا فوقه، ونام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ وهو يتنفَّس بضيق. كان الحرّ شديدًا والهواء جافًّا في الغرفة. بقي في موضعه ساكنًا لبعض الوقت. أيّ حركة سيُصْدِرُها كانت ستثير التشنُّج في جسمه من جديد، قد يعقبها صداع حادّ في رأسه. لكنَّه رجع وأغمض عينيه، محاولاً سحب أنفاسه بتؤدة، مع أنَّها سرعان ما كانت تعود وتضطرب. ما زال فضاء الغرفة المظلم يعبق برائحة حارقة فاحت من الركن الذي شغلته الفتاة، وزاد من حدّتها وتأثيرها الخانق، السقف الواطئ والباب الموصود. لم يكن بمقدوره هو الفرار من هذه الرائحة ومغادرة السقيفة. عليه البقاء مع الفتاة حتى السادسة صباحًا. بينما لم تتجاوز الساعة الثالثة والنصف بعد. استدار على جنبه الأيمن، ثم عاد ودار على جنبه الأيسر، نحو الحائط، مديرًا ظهره إلى الجهة التي تواجدت الفتاة فيها. وراحت مرَّة أخرى، تغزوه الصور من أحداث اليوم والليلة السابقة، ما دفع بالنوم بعيدًا عنه.. فتح عينيه ثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحا. كان قد غفا وهو في الوضعيَّة ذاتها، جسمه صوب الحائط. دار قليلاً باتِّجاه السقف واستلقى على ظهره، فعلا صوت حركة طفيفة قادمة من زاوية الغرفة التي احتلّها السرير الثاني، حين ضمّت الفتاة ساقيها بيديها. بقي هو يحدِّق بالسقف، في الضوء الشاحب المتسرِّب عبر ثقوبه. لقد تعدّت الساعة الآن الرابعة صباحًا، فيما هي لا تزال مستيقظة. دار بجسمه نحو الحائط ثانية، فيما راح ضوء الفجر يخفِّف برفق من حدَّة الظلام الدامس في الغرفة وحرارة جوِّها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة، غمرت السقيفة موجة من العتمة، بدا إثرها كما لو أنّ الوقت راح يرجع أدراجه نحو الليل بدل أن يتقدّم صوب النهار. وقد رافق حلول العتمة هذه، موجة من البرد الذي انقضّ عليه، وجعله يدفع يديه بين فخذيه، مقوِّسًا جسمه باتِّجاه الحائط. ثم بدأ يرتجف. بعد وقت، سحب يديه المرتجفتين من بين ساقيه ودفع بهما إلى بطنه، مُغطِّيًا إيَّاه بذراعيه، إذ عاوده المغصُ الشديد.

واصل جسمُه يرتجف بعنف، حتى بدأ يهتزّ ورفّاصات السرير تحته تئزّ. فجأة، دفع بساقيه المرتجفتين خارج الفراش نحو الأرضيَّة، ووقف عليهما بمشقّة، تاركًا فراشه الذي سكن عندها. بقي واقفًا في مكانه يرتعد، ضامًّا جسمه بيديه محاولاً تدفئته، فيما راحت قدماه تمتصّ برودة أرضيَّة الغرفة التي كانت على أشدّها في مثل هذا الوقت قبيل حلول الفجر، مضاعفة من حدّة ارتجافه؛ ثم علا صوت حركة في فراشها مرَّة أخرى.

بعد لحظات، تحرّك من موضعه وتقدَّم نحو السرير الثاني، الذي أصدر صريرًا حادًّا على حين غرّة. ثم لامست ساقه حافَّته الحديديَّة الباردة، يخالط صوتُ ارتجاف أنفاسه، صوتَ أنفاسٍ مضطربة اندفعت من الزاوية التي تكوَّرت فيها الفتاة. وما إن أوشك أن يدفع بجسمه إلى داخل السرير، حتى ملأ صراخُها الغرفةَ، أعْقَبُه فورًا عواء الكلب في الخارج، فانقضّ هو عليها باحثًا بيده عن فمها محاولاً سدّه. عندها أطبقت بأسنانها على يده وعضّته. لكنَّه بسرعة سحب يده ودفع بالثانية إلى شعرها، الذي انسلّ من بين أصابعه جرَّاء ما علق به من وقود وفَلَتَتْ من قبضته للحظة قصيرة، إلَّا أنَّه عاد وأطبق بيده اليسرى على عنقها وأحكم اليمنى في قبضة هوى بها على وجهها. بعدها، لم تتحرّك الفتاة أكثر. بقي هو في موضعه منحنيًا فوقها لبرهة، حتى مال نحو السرير مقرِّبًا جسمه المرتجف من جسمها، تاركًا صدى نبض قلبه المتسارِع يتردّد في صدرها.

استمرّ الكلب يعوي في الخارج، فيما أخذ أزيز السرير من تحته يتلاشى بالتدريج، إلى أن همد تمامًا بعد أن أدفأ جسمه قليلاً، لكنّ صوت أنفاسه المرتجفة استمرّ يدوّي في فضاء الغرفة المعتم، يتناوب معه نباح الكلب في الخارج، إلى أن جاء عواء يائس أخير، تبعه حفيف شبه مكتوم لأطراف الكلب وهي تبتعد عن الباب وتغطس في الرمل، ليحلّ هدوء كامل.

أغلق جفنيه، ثم مدّ يده اليسرى باتِّجاه منطقة اللسعة، وباشر يتحسّسها بحذر شديد، جائلاً بأصابعه فوق تلّ الورم المكشوف برقّة جعلتها بالكاد تلمسه. وبعد ذلك، دفع بيده اليمنى، التي حمل طرفها الآن حلقة من الخطوط الصغيرة في أعقاب عضَّة الفتاة، إلى الأسفل لتستلقي فوق ساقها.

عصفت به رعشة قويَّة، رجع يرتعد إثرها من جديد، فدار بجسمه كلّه ليلصقه بجسم الفتاة، واضعًا يده اليسرى على بطنها، واليمنى تحت ظهرها. استمرّ يرتجف، منتفضًا من حين إلى آخر من أسفل ظهره وحتى رسغيه، فيما أخذ قلبه يطرق بعنف، في نقطة التحام صدره بصدرها، والتي عاد ضوء الفجر الخافت يكشف انحناءاته. بعد حين، أبعد يده اليسرى عن بطنها، وأمال بجسمه بأكمله فوق الجانب

الأيسر من جسمها، داسًّا بكفه اليسرى تحت قميصها نحو ثديها الأيمن، حيث تكوّرت فوقه متّخذة شكله. ثم دفع بجسمه فوق جسمها، رافعًا قميصها إلى الأعلى، حتى عنقها. وجعل دفءُ جسمها موجات الارتعاش تتلاشى من جسمه بالتدريج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت يده اليمنى تغطّي فمها، واليسرى تتشبّث بصدرها الأيمن، حين راح صرير السرير يعلو سكون الفجر، ثم يحتدّ ويتكاثف، ليرافقه عواء الكلب في الخارج.

وإذ همد الصرير أخيرًا، لم يهمد العواء الحادّ خلف الباب إلَّا بعد زمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت يده اليمنى لا تزال تسدّ فمها، لعابها اللزج ينْحبِس بين أصابعه، عندما فتح جفنيه. ربَّما نام نصف ساعة، ليس أكثر. وقد بدرت للحظة قصيرة رعشةٌ في أصابعه التي كتمت فمها، لكنَّها اختفت في الحال. كان الارتجاف قد زال الآن تمامًا من جسمه. بقي في الوضعيَّة ذاتها دون حراك، فيما هي هامدة تحته، حتى غفا ثانية.

لكنَّه صحا بعد فترة وجيزة. رفع نصف جسمه العلويّ قليلاً، وسحب يده اليمنى من على شفتيها ومدّها إلى صدره متحسِّسًا نقطة طبَعَها فوقه أحد أزرار قميصها المرفوع حتى أعلى صدرها. هي لا تزال ساكنة تحته، يده اليسرى تتشبّث بثديها الأيمن. أعاد يده اليمنى إلى فمها مُحْكِمًا إيَّاها فوقه، وراح يعمّ الفضاءَ، إضافة إلى صرير السرير وعواء الكلب في الخارج، ضوءُ الفجر الذي بسط خيوطه الباردة في أرجاء الغرفة على مهل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غزا أجواء الغرفة خليط من الروائح النتنة، تغلغلت في مواضع مختلفة من أنفه وحلقه، وأمكنه التمييز فيها رائحة الوقود القادمة من شعرها، يلتحم فيها طعم حموضة كثيف، فيه طرف خفيّ من الحلاوة، وَفَد من أسفل بطنه، كما حمل في نهايته رائحة حرِّيفة خدشت أذنيه بحرقتها الحادّة. وفوقها مجتمعة، استقرّت رائحة باردة تشوبها الزنخة، انبعثت من وجه الفتاة الخامد. ثم بدأ اللعاب يندفع إلى مؤخّرة حلقه ولسانه، فقفز من الفراش دافعًا برأسه إلى الأعلى، تناول قميصه وسرواله الموضوعين على الكرسيّ وارتداهما بسرعة، ثم هرع نحو الباب الذي تسلّلت خطوط ضوء رفيعة عبر شقوقه. شدّ الباب فاتحًا إيَّاه، ثم دفع برأسه خارج إطاره وسحب نَفَسًا عميقًا. وقد وثب الكلب، الذي كان مستلقيًا في الخارج، على أطرافه في اللحظة التي انفتح الباب فيها، وبدأ يعوي وهو يقفز ويدور فوق الرمل بخُطى ماثل هدوؤها هدوءَ انتشار ضوء الصبح فوق المعسكر.

كان الفجر قد انقضى تقريبًا وحَلَّ الصبحُ بهوائه الطريّ، غير أنَّ طبقة خفيفة من الغيوم امتدَّت في الجهة الشرقيَّة من السماء، سترت أشعَّة الشمس الباكرة، فبدا المشهد في ضوئها الشاحب مائلاً إلى الرماديَّة. جال هو بعينيه في أنحاء المعسكر الذي توزّع الجنود فيه عند عدَّة نقاط مراقبة، بينما الجنديّ الذي فوِّضت إليه مهمَّة

حراسة الفتاة، واقف قرب مدخل السقيفة الثانية، فهتف نحوه طالبًا منه الحضور على الفور.

حين وصل الجنديّ، أمره أن يدخل الغرفة وينقل الفتاة من هناك إلى السقيفة الثانية، مضيفًا بأنَّ رائحتها نتنة. بعد لحظات، علا صوت احتكاك أطراف السرير الحديديَّة بأرضيَّة الغرفة، صوتٌ حادٌّ يصمّ الآذان، ثم ازدادت حدّته مع اقتراب السرير من مدخل السقيفة، لكنَّه خفّ فجأة حين انغرست أقدام السرير الأماميَّة في الرمل، ثم اختفى تمامًا..

راح الجنديّ الحارس يجاهد في سحب السرير الذي ما انفكَّت قوائمه تنغرس في الرمل بين كلّ فينة وأخرى، إلى أن حضر جنديّ آخر لمساعدته. وقد لحقهما الكلب، ماشيًا وفق سرعة نقلهما السرير بمحاذاة الفتاة، التي ظلّت مغمى عليها، جسمها يهتزّ مع إيقاع حركة الجنديَّين.

دخل عائدًا إلى سقيفته، التي واصل فضاؤها يفوع بالروائح النتنة، ما دفع باللعاب إلى حلقه ثانية، فدار بسرعة إلى الخارج، ووقف عند مدخل السقيفة، مستنشقًا بعض الهواء النقيّ، فيما انصرف يتابع بنظره الجنديَّين اللذين حملا السرير، والكلب يتبعهما. حين بلغا السقيفة، وضعا السرير أمام بابها، ثم اتَّجه الجنديّ الحارس صوب خزَّان المياه وفتح الحنفيَّة الموصولة به، تاركًا الماء يتدفَّق منها إلى داخل السطل الموضوع أسفلها تمامًا. بعد برهة، أغلق الجنديُّ الحنفيَّةَ وحمل السطل عائدًا باتِّجاه السقيفة الثانية. وما إن وصلها، حتى سكب الماء في السطل على جسم الفتاة الهامد فوق السرير، ففرّ الكلب مبتعدًا مع تطايُر بعضه باتِّجاهه، وكذلك على الرمال التي لم تسمح للماء بالسيلان فوقها، إنَّما كعادتها تلقّفته بشرهٍ إلى جوفها. لكنّه ترك خلفه رقعًا صغيرة من الرمل المتخثِّر، التي سوف تختفي قريبًا، فقد بدأ ضوء شمس الصبح الناعم باختراق الغيوم الشفّافة في الجهة الشرقيَّة، والتي كانت في طريقها إلى الزوال أيضًا. سحب الجنديَّان السرير إلى داخل السقيفة الثانية، ثم خرجا وأقفلا الباب خلفهما. ورجع هو إلى داخل سقيفته، وأغلق الباب وراءه.

غير أنَّ الرائحة النتنة ما زالت هناك، وقد دفعته إلى الباب من جديد، ليفتحه حتى نصفه، عسى أن يعبر هواء الصبح النقيّ والضوء الخافت إلى داخل السقيفة. شرع يُعيد ترتيب الأثاث في الغرفة إلى ما كان عليه في السابق، جارًّا الطاولة والكرسيّ إلى وسطها بجهدٍ بانت معالمه في انكماش وجهه. بعدها، اتَّجه نحو صفيحة الماء وسكب نصف محتواها في الوعاء، ثم حمله إلى الطاولة. عاد وتناول المنشفة الصغيرة، ثم قطعة الصابون التي قرّبها من أنفه، مستنشقًا رائحتها بينما هو يقترب من الطاولة. خلع قميصه ووضعه على الكرسيّ، ثم بنطاله، وفجأة جمدت حركته. كان الورم فوق فخذه قد انبجس، وأضحى موضع اللسعة فجوة من اللحم المتآكل المتعفِّن، الذي امتزج فيه القيح الأبيض والزهريّ والأصفر، وفاحت منه رائحة نتنة حرِّيفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خط عصفورٌ أسود صغير السماءَ التي ما برحت تشتدّ زرقتها كلما ابتعدت الشمس عن حافَّة الأفق الرمليّ، فيما خطا هو نحو المركبة. عندما وصلها، قفز فوق المقعد خلف المقود، شغّل المحرِّك، وانطلق نحو الجهة الشماليَّة الغربيَّة من النقب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرَّغم من أنَّ منتصف النهار لم يحلّ بعد، لم يمضِ الكثير من الوقت حتى دفعه القيظ لأن يوقف جولته، فكلّما تقدَّمت الشمس في مسيرها نحو قلب السماء، ازدادت حدَّةُ ضرب أشعَّتها التلال، كما ضاعفت حرارتها من ثقل الهواء.

سكن محرِّك المركبة، فسما الهدوءُ الهضابَ، كما فاحت رائحة وقود حادّة في الفضاء، بعثَتْ في حلقه الحاجة إلى التقيُّؤ مرَّة أخرى. ترجّل من المركبة وبدأ يمشي فوق الرمل، متَّجهًا نحو الغرب، وراءه أشعَّة الشمس التي أغارت عليه تلسع ظهره، والأفق أمامه يرتجّ بعصبيَّة جرّاء السراب.

واصل مسيره إلى أن انبثقت بعيدًا، بين التلال القاحلة، رقعة غطّتها أعشاب جافَّة، فتوقّف هُنَيْهةً، ثم عاد يمشي باتِّجاهها، تسبقه إليها البقع السوداء المتقافزة أمامه، والتي لم تعد الآن تفارق بصره. وحينما وطأت قدماه تلك الرقعة، تلاشى السكون الثقيل الذي غلّف الفضاء، وعلا صوت احتكاك العشب اليابس بقدميه، كما تحطّم بعضه تحتهما. وقد تنقّلت عيناه خلال مسيره هذا بين النباتات التي شكّلت رقعة العشب هذه، كان أكبرها بصيلات ضخمة الحجم.

ارتمى فوق منحدر تلَّة واطئة قابلت حقل الأعشاب الجافَّة ذاك، ثم انصرف يحدِّق في المرتفعات الرمليَّة التي طوّقته من جميع الاتِّجاهات، ووقفت المركبة بعيدًا في طرفها الشماليّ الشرقيّ. حوّل نظره من المركبة وعلّقه بتجويفٍ بان في الرمل إلى يمينه، وانطلقت منه وإليه أسراب من النمل العملاق، الذي أعاد ترتيب حُبيبات الرمل في أشكال جديدة خلال حركته السريعة. رفع بصره ثانية نحو بقعة العشب اليابس والسهول الرمليَّة الصفراء المنبسطة أمامه. وفجأة، اجتاحته موجة من الحرّ، انتشرت في جسمه كلهيب النار، ودفعت به إلى الأسفل، ليستلقي فوق الرمل كلِّيَّة. ألقى برأسه على راحته اليمنى، ثم مدّ يده اليسرى إلى قبَّعته ليسحبها فوق جبينه، فداهمتْ عندها أنفَه رائحةُ الوقود التي علقت بيده اليسرى، مجبرة إيَّاه على أن يشيح بوجهه جانبًا، لتفاديها قدر الإمكان. وقد دار بأنفه بالكامل نحو الرمال، حيث راح يستنشق الهواء الذي ركد فوق سطحها مباشرة، وتصاعدت منه رائحة خفيفة من الجفاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجع إلى المركبة، جلس على المقعد خلف المقود، وصوّب عينيه الثقيلتين نحو كثبان الرمل التي حرق ضوءُ الشمس المنعكس فوقها وجهَه المتعب. أدار المحرِّك دافعًا بقدمه اليمنى فوق دعّاسة الوقود، إلَّا أنّ المركبة لم تتحرَّك، إنَّما دارت عجلاتها في موضعها داخل الرمل. رفع قدمه عن الدعّاسة، أخذ بضعة أنفاس

عميقة، ثم داس فوقها ثانية، فقفزت المركبة من موضعها قبل أن تنطلق نحو الجهة الجنوبيَّة الشرقيَّة.

عند وصوله إلى المعسكر، استقبله الكلب عند البوَّابة، موجِّهًا نحوه عواءه الهائج. ترجّل من المركبة، فيما ابتعد بضعة جنود عن السقيفة الثانية، ماشين في اتِّجاهات مختلفة، أعقبهم جنديّ خرج منها وهو يزرِّر بنطاله بسرعة، شادًّا خلفه الباب الذي لم يكن يحرسه أحد.

صاح الضابط مناديًا باسم الجنديّ الذي أوكل إليه مهمَّة حراسة الفتاة، وهو يمشي باتِّجاه السقيفة الثانية. حين بلغها، علا ردّ الجنديّ الحارس قادمًا من خلفه، لكن في تلك اللحظة بالضبط، انفتح باب السقيفة وعبرته الفتاة وهي تصرخ وتنحب. دار هو نحو الجنديّ الذي كان الآن على بعد خطوات منه، وطلب منه أن يعيدها إلى السقيفة، فأسرع هذا نحوها وباشر يجرّها باتِّجاه باب المدخل، إلَّا أنَّها حاولت أن تقاومه وأن تدير رأسها نحو الضابط، الذي دار برأسه إلى الناحية الثانية، متجنِّبًا رائحة الوقود التي راحت تتلكَّأ خلفها في الفضاء. استمرّت الفتاة في نحيبها وصراخها حتى بعد أن أدخلها الجنديّ السقيفةَ. وحين خرج وأوصد الباب خلفه، صوّب الضابط نظره إليه، وأمره بألَّا يتحرّك من مكانه، ثم غادر متَّجها نحو سقيفته.

وفي تلك الأثناء، تحوّل عويل الفتاة إلى نشيج بالكاد يمكن سماعه، جاعلاً عواء الكلب يخمد تدريجيًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين دخل السقيفة، داهمت أنفه على الفور بقايا الرائحة النتنة. ترك الباب مفتوحًا، ثم تناول المنشفة الصغيرة المعلّقة بالمسمار، وشرع يضرب الهواء الراقد في الركن الذي احتلّه السرير الثاني الليلة الماضية، محاولاً دفعه مرَّة تلو الأخرى نحو الباب، فخارجه. واصل يجاهد في طرد الرائحة من الغرفة، حتى سقطت المنشفة من يده. التقطها ثانية من فوق الأرضيَّة ثم رمى بها على حافَّة الكرسيّ، وباشر يمشِّط الغرفة بعينيه من موضعه حيث وقف. بعد لحظات، سحب الكرسيّ وجلس فوقه، لكنَّه عاد ونهض متَّجهًا إلى الركن الذي استقرّت فيه حاجيَّاته. سكب من الصفيحة بعض الماء في الوعاء، ثم خلع قميصه، فحذاءه وجوربيه، وبنطاله الذي علق بأطرافه بعض الشوك والقشّ اليابس. تناول المنشفة، بلّلها بالماء، ثم مسح بها قطعة الصابون، ومرَّرها فوق وجهه وعنقه. غسل المنشفة، مسّد قطعة الصابون بها ثانية، ثم مسح صدره وذراعيه. غسلها، مرَّر قطعة الصابون فوقها من جديد، ومسح إبطيه. ثم غسلها ومسح ساقيه دون أن يفكّ الضمادة عن موضع الجرح. حين فرغ من مسح جسمه بالكامل، غسل المنشفة جيِّدًا وأعادها إلى مكانها السابق.

ارتدى ملابسه ذاتها، والتي فاحت منها رائحة عرق خفيفة، مع أنَّ رائحة طيِّبة انبعثت منها كذلك. خرج من السقيفة حاملاً الوعاء، سكب ما فيه من ماء فوق الرمل، ثم أعاده إلى الداخل، واتَّجه بعدها إلى السقيفة الثانية.

كان الجنديّ الحارس والكلب يجلسان قرب الباب، لكنْ حين صار قريبًا منهما، وقف الكلب على أطرافه وأخذ يعوي، كما وقف الحارس أيضًا. صوّب بصره أوَّلاً إلى الكلب، ثم رفعه إلى الجنديّ، وأمره أن يذهب ويطلب من نائبه الرقيب والسائق أن يهيِّئا نفسيهما في الحال للخروج في مهمَّة سريعة، ثم أن يعثر على مجراف ويأتي به إلى المركبة، حيث سيكون بانتظاره.

انطلق الجنديّ لتنفيذ ما أُمر به، بينما بقي هو واقفًا قرب الباب ينظر إلى الكلب الذي هدأ نباحه، وأخذ الآن يغمض عينيه ويدير رأسه، مجيلاً ناظريه في المكان. بعد برهة قصيرة، علت جلبة من جهة خيمة القيادة، فدار هو بنظره نحوها. خرج النائب الرقيب والسائق من فتحتها أوَّلاً، يتبعهما الجنديّ الحارس. وفي حين توجَّه النائب الرقيب والسائق نحو المركبة، مشى الحارس باتِّجاه النقطة التي جُمِّعت فيها المعدّات قرب خيمة القيادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف النائب الرقيب والسائق قرب المركبة، بانتظار الضابط الذي قاد الفتاة أمامه واتَّجه إليهم، خلفه الكلب، فيما ركض الجنديّ الحارس صوبهم من الجهة الأخرى حاملاً مجرافًا بيده.

في تلك الأثناء، نهض كذلك بعض الجنود من أماكن جلوسهم في ظلال الخيم، وراحوا يتابعون ما يجري أمامهم. كان الهدوء، الذي أثقلته حرارة شمس الصباح المرتفعة نحو السماء، قد عمّ المعسكر، إلى أن علت صرخة أحدهم باتِّجاه جمع الواقفين قرب المركبة قبل انطلاقهم، طالبًا استعادة بنطاله القصير، الذي منحه في الأمس للفتاة كي ترتديه.

تحرَّكت المركبة أخيرًا، الكلب يجري وراءها محاولاً اللحاق بها دون جدوى، صوت نباحه يطغى على هدير محرّكها الآخذ في الابتعاد، حتى اختفت كلِّيَّةً بين الهضاب الرمليَّة.

ولم يكونوا قد ابتعدوا كثيرًا عن المعسكر عندما أمر السائق بالتوقُّف، معلِّقًا بأنَّه لا تتوافر بحوزتهم كمِّيَّات كبيرة من الوقود. هدأ المحرِّك، ونزل هو أوَّلاً ثم تبعه الباقون. أمر الجنديّ الحارس بحفر حفرة بطول مترين وبعرض نصف متر في تلك النقطة، مشيرًا إلى رقعة من الرمل لم تختلف عن غيرها. وكانت بضع دقائق مضت فقط، حين هوت كفّ المجراف فوق المنطقة التي أشار إليها، شاقَّةً بهدوء الرمل، لتحفن أكبر قدر ممكن منه، وتلقي به إلى أبعد نقطة تمكّنت ذراع الجنديّ وعصا المجراف من الوصول إليها.

راحت عمليَّة الحفر تجري بسكون يكاد يكون مطبقًا، خلا حفيف المجراف وهو يحمل الرمل ويرمي به، وأصوات متفرِّقة كان مصدرها الجنود في المعسكر تناهت إليهم من خلف التلال، بحيث أفقدها البعد حدّتها، وجعلها مبهمة أشبه بالهمهمات. ثم علا صوت صراخ حادّ على حين غرّة. كانت الفتاة تُوَلْوِل وهي تركض فارّة. ثم

سقطت فوق الرمل قبل أن يُسمَع في الفضاء صوت الطلقة التي استقرَّت في الجانب الأيمن من رأسها. وساد الهدوء من جديد.

راحت الدماء تتدفَّق من رأسها إلى الرمل الذي امتَّصه بغير عناء، فيما تجمّعت أشعَّة شمس الظهيرة فوق ردفيها العاريين اللذين كانا بلون الرمل.

ترك الجنديَّ يعمل على شقّ الحفرة، والنائب الرقيب والسائق يقفان قربه، ورجع إلى المركبة. كان يرتجف، حين اقترب السائق منه بعد برهة، وقال له إنَّها ربَّما لم تمت؛ لا يمكنهم تركها هكذا، يُفَضَّلْ التأكُّد من موتها. استمرّ هو يرتجف، يشلّه ما يشبه التمزُّق في الأمعاء، قبل أن يحرِّك فمه آمِرًا السائق أن يطلب من نائبِه الرقيب أن يقوم بذلك. بعدها بقليل، انطلق في الفضاء صوت ستّ طلقات، ثم حلّ السكون مرَّة أخرى. صبيحة ١٣ آب ١٩٤٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انقشعت التلال الرمليَّة مفسحة المجال لرؤية المعسكر ثانية، حيث بان الكلب وهو يجري نحوهم نابحًا باهتياج؛ وحين توقّفت المركبة، توقّف أمامها، لكنْ ليس عن النباح.

ترجّلوا من المركبة، واتَّجه النائب الرقيب والسائق والجنديّ نحو خيم الجنود، وهو إلى سقيفته، يتبعه الكلب الذي ما زال يعوي باتِّجاهه. أخيرًا، دار الضابط نحوه ورفسه بحذائه، فنوّص الكلب بحدّة وفرّ مبتعدًا، فيما أكمل هو مسيره باتِّجاه سقيفته. وحين دخلها، استقبلته موجة حرّ شديدة، ترافقها مسحة خفيفة من الرائحة النتنة.

توجّه إلى ركن العدَّة، وتناول من هناك قطعة الصابون، فتّتها بين أصابعه إلى قطع شديدة الصغر، ثم نثرها في المنطقة التي شغلها السرير الثاني من قبل. رجع إلى الركن، وتناول صفيحة الماء، سكب ما فيها في الوعاء وحمله إلى الطاولة، ثم اتَّجه إلى صندوق العدَّة، وأخرج من داخله قطعة صابون جديدة. عاد إلى الطاولة، وضع يديه في الماء، وحمل ما استطاع منه إلى وجهه، ثم تناول قطعة الصابون الجديدة، ولفّها بين يديه الرطبتين اللتين مسّدتاها، مقلِّلتين من حدَّة زواياها القاسية. مسح وجهه بما علق بيديه من رغوة صابون، ثم غسله بالماء جيِّدًا. بعدها، بدأ الخَدَرْ يستولي على جسمه تدريجيًّا. نشّف وجهه ويديه ببطء، ثم اتَّجه إلى سريره، واستلقى فوقه، مادًّا يده اليمنى خارج حافَّته، بحيث لامست أصابعَه برودةُ الهواء الواهنة التي اختبأت تحت السرير، في منأى عن حرارة الجوّ التي أثقلت الغرفة.

وكاد يغفو عندما غزت فجأة عينيه المثبّتتين بالسقف حركةٌ ما على صدره، فهبّ من مكانه ونفضها عنه، لكنَّها لم تكن إلَّا لأحد أزرار قميصه الذي تحرّك أثناء تنفّسه. عاد يحدِّق بالسقف، متفقِّدًا بعينيه أجزاءه المختلفة، إلى أن سُمع خدشٌ خفيفٌ على أرضيَّة الغرفة، دغدغ أذنه اليمنى.

اقترب الكلب من كفّ يده اليمنى المنبسطة في الهواء، وأخذ يشمشمها، ثم أطبقها فجأة على فكّيه. وراح ارتجاج نباح الكلب المكبوت يتسرّب إليها، في حين كان صوت انزلاق أطرافه على الأرضيَّة وهو يحاول الإفلات من قبضته، يملأ الفضاء.

ويجاهد الكلب. وكلما جاهد أكثر، ازدادت وتيرة تعثره فانزلاقه على الأرضيَّة، وارتجاج نباحه المكبوت، كما حدَّة صرير السرير الذي استلقى الضابط فوقه، إلى أن فتح هذا يدَه أخيرًا، فانزلق الكلب على الأرض قبل أن ينطلق عواؤه يائسًا عاليًا وهو يلوذ بالفرار.

بقيت يده اليمنى ممدودة خارج حافَّة السرير، بينما اليسرى فوق صدره، لا تزال يفوح منها مسحة خفيفة من رائحة الوقود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ٢ -

بعد أن انتهيتُ من تعليق الستائر أمام النوافذ، استلقيتُ فوق السرير. حينها بدأ كلب ما على التلّة المقابلة يعوي بلا انقطاع. كان الوقت ما بعد منتصف الليل، ولم أغفُ رغم إنهاكي الشديد، بعد أن قضيتُ اليوم بأكمله أجهِّز البيت وأنظِّفه جيِّدًا، فقد مسحتُ الأثاث والأرضيَّة، وأعدتُ غسل الشراشف والمناشف وغالبيَّة أواني المطبخ.. مع أنَّه، مبدئيًّا، كان البيت نظيفًا قبل أن أبدأ بتنظيفه جيِّدًا، إذ أخبرني المالك بأنَّهم أحضروا سيِّدة خصِّيصًا لتفعل ذلك. وقد استأجرت هذا البيت قبل أيَّام عدَّة، مباشرة بعد استلام وظيفتي الجديدة. عمومًا، البيت جيِّد والوظيفة جيِّدة، وزملائي هناك لطيفون. إلّا أنّ كلّ هذا لن يتغلّب البتّة على الإحساس بالقلق والذعر الذي أيقظه فيَّ عواء الكلب المتواصل تلك الليلة. بغضّ النظر، حين سأستيقظ في صباح اليوم التالي، سينتابني إحساس بالرضى، مصدره ليس سوى نظافة البيت، وربَّما الستائر المعلّقة أمام نوافذه. وقد وضعت طاولتي الزجاجيَّة قرب أكبرها، حيث سأجلس كلّ صباح وأشرب قهوتي قبل الذهاب إلى عملي الجديد، في حين سيمرّ الجيران وأولادهم الثلاثة وسيحيّونني، ما سيوحي بعيشي حياة هانئة تشرف على ساحة خلفيّة خفيّة عن الأنظار. فالحدود المفروضة هنا بين الأشياء كثيرة، ويجدر الانتباه إليها والالتزام بالتحرّك وفقها، ما مِن شأنه أن يقي المرء عواقب أليمة، كما وأن يمنحه قدرًا من الإحساس بالطمأنينة على الرَّغم من كلّ شيء. غير أنَّ الذين نجحوا بإتقان التحرُّك وفق الحدود وعدم تجاوزها هم قلّة، أنا لستُ من بينهم. فما إن أرى أحدًا حتى أركض مسرعة نحوه وأقفز عنه، أو أتجاوزه خلسةً بخطوة. ولا ينجم أيٌّ من هذين التصرُّفين في هذه الحالة عن وعي أو عن رغبة مبيّتة في مقاومة الحدود، إنّما عن بلاهة. فما إن أتجاوز حدًّا ما، حتى أنزلق داخل هوّة عميقة من الإحساس بالاضطراب. إنَّ الأمر، ببساطة، أقرب إلى الخراقة. وإذ أدركت فشلي المحتَّم في التحرُّك وفق الحدود وأخيرًا، قرّرت أن أبقى داخل حدود بيتي قدر ما استطعتُ. ثم، ولأنَّ للبيت نوافذ كثيرة، يمكن للجيران وأولادهم الثلاثة رؤيتي عبرها ورؤية تجاوزي للحدود حتى وأنا داخل بيتي، علّقت الستائر، مع أنَّني سأنسى إغلاقها في بعض الأحيان. لكنْ، وبما أنَّني أتواجد دائمًا وحدي في البيت حين أكون فيه، فسأجلس إلى طاولتي لا غير، وهذا كلّ ما سيراه العالم الخارجي منّي، لدرجة أنَّه حين ستمضي بضعة أيَّام دون أن أفعل ذلك، سيقول لي ابن الجيران الأوسط إنَّه اشتاق إلى رؤيتي كلّ صباح جالسةً إلى طاولتي «أعمل». أجل، فَلَقَدْ برَّرتُ جلوسي الصباحيّ المطوّل هذا أمام الآخرين بأنَّني «أعمل». وأنا عادة «أعمل» قبل الذهاب إلى عملي الجديد، الذي سيبقى بالنسبة لي جديدًا حتى النهاية، لأنّني لا أدري في أيِّ لحظة من الزمن عليه أن يتحوَّل من عملي الجديد إلى عملي فحسب، كما وسأبقى فيه حتى ساعة متأخِّرة من الليل، فاقت قدرة الحارس الليليّ على مواكبتها، لأنّني في الغالب سأصل المكتب وأبدأ دوامي متأخِّرًا، لأنَّ الكلب على التلّة المقابلة عادة ما سيصحيني في الليل ولن أنجح في العودة إلى النوم حتى حلول الفجر، فأصحو متأخِّرةً ثم أصل إلى عملي الجديد متأخِّرةً. وحين لا

يحدث أيّ من هذا، سأبقى في بيتي حتى آخِر ساعات الصباح، جالسة إلى طاولتي «أعمل»، على ماذا؟

على كلّ حال، أُدْرِك أنَّ وصفي للأمور قد يبدو مبالغًا فيه، لكنْ هذا يعود للمشكلة التي وصفتها للتوّ، وهي عدم قدرتي على تمييز الحدود، بما فيها المنطقيَّة، بين الأشياء، ما يجعلني أغالي في تقييم أمر ما، أو أن أقلِّل من شأنه، مقارنة مع غالبيَّة الناس. مثلاً، حين تُوقِف دوريَّة عسكريَّة سيَّارةَ النقل العموميّ التي أستقلّها إلى عملي الجديد، وأوَّل ما يطلّ عبر بابها هو فوّهة البندقيَّة، أطلب من الجنديّ بتلعثم، على الأغلب بسبب الخوف، أن يزيحها جانبًا حين يتحدَّث إليّ أو يطلب منِّي رؤية بطاقة هويَّتي. عندها، عدا أنَّ الجنديّ يروح يسخر من تلعثمي، يبدأ مَن حولي مِن الركّاب بالتأفُّف، لأنّني أبالغ، فلا حاجة لخلق مثل هذا التوتُّر. الجنديّ لن يطلق النار علينا، وإن حدث وفعل، لن يغيِّر تدخُّلي من مجرى الأمور، بل العكس. أجل، إنّني أفهم كلّ ذلك، ولكن ليس لحظتها، إنَّما بعد ساعات، أو أيَّام، أو حتى سنين. هذا على سبيل المثال. لكنْ، يمكن رصد التصرُّف ذاته في مواقف شتَّى أخرى، بدءًا من خلع بعض الملابس خلال الفحص الأمنيّ على حاجز ما، وحتى السؤال عن سعر خسَّة ذابلة مخمِّجة من بائع خضار غير محترف، يجلس وسط سوق رام الله للخضار المغلق خلال عطلة يوم الجمعة، ويطلب ثلاثة أضعاف السعر العاديّ للخسَّة العاديَّة. ثم، ولأنّني أفتقد القدرة على تقييم الأمور بشكل عقلانيّ، كثيرًا ما يكون وقع مثل هذه المواقف شديدًا عليّ، إذ تهزّني وتزعزعني، بحيث لا أعود أفقه ما يجوز وما لا يجوز، ما يؤدِّي بي إلى تجاوز الحدود ثانية بدرجة أكبر من ذي قبل. إلَّا أنَّ كلّ القلق والخوف والاضطراب النفسيّ الناجم عن ذلك، يتبدّد حين يحدث هذا التجاوز في نطاق عزلتي. فكم متسامحة لعبور الحدود هي العزلة، حين أجلس وحدي إلى طاولتي «أعمل» على موضوع سنحت لي الفرصة باكتشافه خلال جلوسي الصباحيّ هذا، لا غير.

على فكرة، أتمنَّى أنّني لم أُسبِّب أيّ إرباك حين ذكرتُ الموقف مع الجنديّ أو الحاجز، أو حين أفصح عن أنَّنا نحيا هنا تحت الاحتلال. أصوات إطلاق الرصاص وصفّارات الدوريّات العسكريّة، وأحيانًا المروحيّات والطائرات الحربيّة والقصف، تليها صفّارات سيَّارات الإسعاف، ليست فقط جميعها تسبق نشرات الأخبار العاجلة، بل وتزاحم نباح الكلب في أن تكون جزءًا من صوت الفضاء. والوضع على هذا الحال منذ وقت طويل جدًّا، بحيث إنَّه لم يبقَ هنالك الكثير ممَّن هم على قيد الحياة، قادرين على تذكُّر التفاصيل الصغيرة المتعلِّقة بشكل الحياة الذي كان سائدًا قبل ذلك، كتفصيل الخسَّة المخمِّجة في سوق الخضار المغلق مثلاً. لذا، من المُفرَغ منه، أنَّ ما جعل الموضوع، الذي اكتشفته ذات صباح خلال قراءتي لمقالة ما في إحدى الصحف، يستحوذني، لم يكن يتعلّق بالحادثة الرئيسيَّة التي تورد ذِكْرُها. فمثل هذه الأمور عاديَّة، أو لِنَقُلْ تحدث في مثل هذا السياق. بل لكثرة ما تحدث، ولم أحرِّك ساكنًا من قبل تجاه أيٍّ منها. مثلاً، ففي صباح يوم آخر، وكان ماطرًا، استيقظتُ من النوم متأخِّرًا، ما حال دون جلوسي إلى طاولتي أمام النافذة الكبيرة «للعمل»، واضطررت للتوجُّه إلى عملي الجديد مباشرة. ثم حين وصلتُ الموقف، ونزلتُ من

سيَّارة النقل العموميّ قبل دوّار الساعة بقليل، وجدتَ الشارع خاليًا من المارّة والسيَّارات، كما لحظتُ دوريَّة عسكريَّة تقف أمام بقالة «البندي». لكنْ، وبما أنّه لم يكن في الأمر ما هو خارق للعادة، واصلتُ مسيري في الاتِّجاه المعاكس نحو عملي الجديد. وحين وصلتُ إلى بداية الشارع المؤدِّي إلى المكتب، لفتَ المرء الوحيد، الذي صادفته حتى تلك اللحظة، انتباهي إلى أنَّ المنطقة تخضع لحظر تجوُّل، وأنَّ الجيش يحاصر إحدى العمارات القريبة. وهنا، لم أجد ما هو غير اعتياديّ في الأمر أيضًا، وأكملت طريقي. ثم هناك، في وسط الشارع قبالة البوَّابة الرئيسيَّة للمبنى حيث يتواجد مكتبي، لمحتُ جنديّين. بعد أن تعلَّمت درسي، وأخيرًا، بوجوب الحفاظ على هدوئي وعلى رباطة جأشي في مثل هذه المواقف، لوّحت لهما قائلة بصوت واضحٍ واثق، أنّني أعمل داخل المبنى الذي يقفان أمامه. عندها جثا أحدهما على ركبته اليمنى، ثم أسند كوع يده اليسرى على الركبة الثانية مصوِّبًا فوَّهة بندقيَّته نحوي، وعلى الفور، قفزتُ إلى شجرة الدوم التي كانت إلى يميني، لأحتمي بأغصانها الشائكة من طلقات رصاص لم تخرج على أيّ حال. وبينما لم يكن تصرُّفه هذا، بأن يصوِّب بندقيَّته نحوي، بالإنسانيّ، كان كافيًا لأن أفهم قصده، وأنَّه عليّ الآن أن أجد طريقًا آخر للوصول إلى عملي الجديد، فحتى الآن، لم أجد في كلّ هذا ما هو غير معهود، بحيث يتوجّب عليّ أن أعود أدراجي إلى البيت. وبالفعل، وبسهولة، قفزت عن الأسوار والحدود الفاصلة بين المباني والبيوت، وأعتقد أنَّ القفز عن الحدود هنا مبرَّر للغاية، أليس كذلك؟ إلى أن وصلت إلى الجهة الخلفيَّة من المبنى الذي أعمل داخله. وبما أنَّه لم يحضر إلى المكتب ذلك الصباح سوى ثلاثة من زملائي، رحت أزاول مهامي دون إزعاج أيّ شخص لي، وبالتالي بشكل جيّد ومكثّف للغاية، إلى أن جاء أحد هؤلاء الزملاء وفتح نافذة مكتبي دون استئذاني، وحين احتجَّيت، قال إنَّ عليه أن يفعل ذلك وإلّا سيتحطّم زجاجها، فقد أخطر الجيش سكّان المنطقة بأنَّه سيفجِّر إحدى العمارات المجاورة التي يرابط داخلها ثلاثة شبَّان، وهو ما حدث بالضبط بعد بضع دقائق، إذ نسي هذا الزميل فتح نافذة واحدة في المبنى، تحطّم زجاجها مباشرة لحظة تفجير العمارة. مع ذلك، كانت نتيجة فتحه نافذة مكتبي لا تُطاق، فقد اندفعت عقب الانفجار الذي هزّ المكتب حقًّا، سحبٌ كثيفة من الغبار الذي رأيت منه ما يحطّ على أوراقي وحتى على يدي الممسكة بالقلم، ما دفعني للتوقُّف عن العمل، فأنا لا أُطيق الغبار بالمرَّة، وبخاصَّة هذا النوع منه، بذرّاته الكبيرة التي تصدر صوتًا يُثير القشعريرة حين تحتكّ الأوراق بعضها ببعض، أو حين يروح المرء يخطّ بالقلم فوقها. وفقط، بعد تمكُّني من إزالة آخِر ذرَّة مِنه عن مكتبي، أمكنني الرجوع إلى أوراقي ثانية. وهنا، قد يطرأ للبعض أنَّ مواظبتي هذه على العمل تعكس رغبة في التشبّث بالحياة أو حبّها على الرَّغم من محاولة الاحتلال تدميرها، أو الإصرار على أنَّ هنالك ما يستحقّ الحياة على هذه الأرض. حسنًا، لا يمكنني أنا بالذات التحدُّث باسم الآخرين، لكنْ في حالتي، كلّ ما في الأمر هو أنَّه ليس بمقدوري الحكم على الأمور بشكل متّزن، أو معرفة ما يجب أو ما لا يجب القيام به، وكلّ ما بقي يمكنني عمله بغير عواقب وخيمة هو العمل في مكتبي، أو الجلوس في بيتي إلى طاولتي أمام النافذة الكبيرة، حيث سيتسنّى لي قراءة تلك المقالة التي أكثر ما شدَّ انتباهي إليها بالتحديد، هو التفصيل المتعلِّق

بتاريخ وقوع الحادثة التي تأتي على ذكرها. لقد جرت في صباح ما، سيصادف بعد ربع قرن بالضبط، صباح ميلادي. بالطبع، قد تبدو هذه نرجسيَّة خالصة، حقيقة أنَّ ما شدّني إلى تلك الحادثة وجعلها تستحوذني هو مثل هذا التفصيل الثانويّ، مقارنة مع تفاصيلها الرئيسيَّة الأخرى التي يمكن وصفها بالمفجعة. وهو أمر محتمل جدًّا، وجود هذا النوع من النرجسيَّة عند المرء. إنَّه مَيْلٌ ربّما تلقائيّ نحو الاعتقاد بخصوصيَّة الذات وعلوّ شأن الحياة التي تقودها، لدرجة لا يمكن للمرء إلَّا أن يحبّها وكلّ ما يتعلّق بها. لكنْ، بما أنّي لا أحبّ حياتي بشكل خاصّ، ولا الحياة عامَّةً، وحاليًّا أيّ جهد من طرفي في هذا الشأن ينصبّ على البقاء على قيد الحياة، فإنَّني أشكّ في أنَّ تشخيص النرجسيَّة ينطبق عليّ كُلِّيَّةً هنا. إنَّما هو أمر آخر، له صلة أكبر بعدم قدرتي إيَّاه على تمييز الحدود بين الأشياء، والحكم على الأمور بشكل منطقيّ وعقلانيّ، ما يؤدِّي بي في كثير من الأحيان إلى رؤية خراء الذبابة على اللوحة، وليس اللوحة نفسها. ويمكن للوهلة الأولى السخرية من هذه النزعة، التي قد تدفع المرء عقب تفجير عمارة قرب مكان عمله الجديد، بأن يبالي فقط بالغبار الذي أثاره تفجيرها وحطّ على مكتبه، لا مقتل الشبَّان الثلاثة المُحْتَمين داخلها، على سبيل المثال. لكن، مع هذا، يوجد من يرى في أسلوب الرؤية هذا، ويفيد بالتركيز بأشدّ التفاصيل ثانويَّة، كالغبار على المكتب أو خراء الذبابة على اللوحة، السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة، إن لم تكن الدليل القاطع عليها. بل هنالك مختصُّون بالفنّ يدّعون ذلك بأنفسهم. حسنًا.. هم لا يطالبون بملاحظة خراء الذبابة على اللوحة بالضبط، إنَّما التركيز على التفاصيل الأقلّ أهمِّيَّة فيها، لا الأكثر، للتحقُّق مثلاً إذا ما كانت هذه اللوحة أصليَّة أم مزيّفة. فالمقلِّدون، بحسبهم، حين يقومون بتزييف لوحة ما، ينتبهون إلى التفاصيل الرئيسيَّة والمهمَّة فيها، كاستدارة الوجه أو وضعيَّة الجسم، وبالتالي ينجحون بتقليدها على أتمّ وجه، لكنَّهم قلّما انتبهوا إلى التفاصيل الصغيرة الهامشيَّة، كحلقة الأذن والأظافر في أصابع اليد أو القدم، وهو ما يؤدِّي بهم إلى الإخفاق في نقلها بشكل كامل. كما ويدّعي آخرون، اعتمادًا على الفكرة ذاتها، أنَّه يمكن تكوين صورة عن واقعة ما أو أمر لم يسبق للمرء أن شَهِدَه، عبر ملاحظة تفاصيل صغيرة شتّى، والتي قد يجدها البقيَّة بغير ذي أهمِّيَّة، مثلما تشهد رواية قديمة. في هذه الرواية، يأتي أنَّ ثلاثة إخوة التقوا رجلاً أضاع جمله، وفي الحال يقوم هؤلاء الإخوة بوصف ضالّته أمامه: إنَّه جمل أبيض وأعور، يحمل في سرجه قِرْبَتين، واحدة مملوءة بالزيت والثانية بالخمر. لا بدَّ أنَّهم رأوه، يصرخ الرجل. لا، لم يروه، يجيبون. لكنَّه لا يصدِّقهم ويتّهمهم بسرقة جَمَلِه. فيحضر الأربعة أمام المحكمة، حيث تثبت براءة الإخوة الثلاثة، بعد أن يكشفوا للقاضي كيف أمكنهم معرفة شكل حيوان لم يسبق لهم أن رأوه قطّ عبر ملاحظة أصغر التفاصيل وأشدِّها بساطة، كآثار أعقاب الجمل المتباينة فوق الرمل، وبعض قطرات الزيت والخمر التي انسكبت من حِمْله جرّاء عرجه، ونتف من وَبَره المتحسِّر. ثم كون تاريخ الحادثة التي تستعيدها تلك المقالة هو التفصيل الذي أثار انتباهي بالتحديد، قد يعود إلى أنَّه فعلاً ليس هنالك ما هو خارق للعادة في تفاصيلها الرئيسيَّة، إن تمّتْ مقارنتها مع الأحداث اليوميَّة في مكان يطغى عليه صخب الاحتلال والقتل الدائم. وحادثة تفجير العمارة هي مثال واحد فحسب على ذلك. حتى

الاغتصاب. بل هذا ليس يجري في الحروب فقط، إنّما كذلك في الحياة اليوميَّة. قتل أو اغتصاب، وأحيانًا الأمران معًا، ولم تشغلني أيّ من هذه الحوادث من قبل، بما فيه هذه الحادثة، التي نجمَتْ عن مقتل أشخاص آخرين كما يأتي في المقالة إيَّاها، بينما تفصيل قتل فرد واحد من بينهم فقط هو الذي يستحوذني. فكلّ ما هو غير معهود إلى حدٍّ ما في حالة القتل هذه، التي كانت الخاتمة لعمليَّة اغتصاب جماعيَّة أيضًا، يمكن القول، إنَّها وقعتْ في ما سيوافق بعد ربع قرن بالضبط، يوم مولدي، لا غير. بالتالي، لا يمكن استبعاد احتمال توارد علاقة ما بين الحدثين، أو وجود رابط خفيّ بينهما، على غرار العلاقات التي قد يصادفها المرء بين النباتات مثلاً، حين تُقْتَلع ضمَّة عشب ما من جذورها، بحيث يعتقد البعض أنَّه تمّ الخلاص منها نهائيًّا، ليس إلَّا لتعود وتنبت عشبة من الفصيلة ذاتها من جديد في المكان نفسه بعد ربع قرن من الزمن. لكنْ، في الوقت ذاته، أدرك أنَّ اهتمامي بتلك الحادثة على أساس تفصيل ثانويّ كتاريخ وقوعها، ينبئ بتجاوزي المحتَّم للحدود مرَّة أخرى. لذا، منذ معرفتي بها، أنصرف يوميًّا لأقنع نفسي بضرورة تناسيها تمامًا، وبالتالي عدم الإتيان على خطوة ما متهوِّرة في هذا الشأن. فتاريخ حدوثها لا يمكنه أن يتعدَّى الصدفة البحتة، عدا أنَّه أحيانًا لا مفرّ من إغفال أحداث الماضي، إذا كان ما يجري في الحاضر لا يقلّ هولاً عنها؛ ذلك إلى أن صحّاني ذات فجر نباح الكلب، يسابقه عويل ريح شديدة. أسرعت إلى النوافذ كي أغلقها، حتى وصلت النافذة الكبيرة، التي بدا عبرها مدى قسوة الريح وهي تشدّ العشب والشجر على غير هدًى، جاعلة أغصانه تتمايل في جميع الاتِّجاهات، بينما الأوراق فوقها تتلوّى مرتجفة تارة إلى الأمام وتارة إلى الوراء، تكاد تتمزّق تحت وطأة شراسة عبث الريح بها. والنبات ببساطة لا يقاوم. فقط يستسلم لحقيقة أنَّه هشّ، وأنَّ الريح يمكنها أن تفعل به ما تشاء، تخترقه وتعبث به وبأوراقه، وتعبر بين أغصانه، حاملة معها نباح الكلب الهائج لترمي به في كلّ صوب. ومرَّة أخرى، مجموعة من الجنود يأسرون فتاة، يغتصبونها، ثم يقتلونها في ما سيصادف بعد ربع قرن يوم مولدي؛ هذا التفصيل الثانويّ، الذي لا يمكن إلَّا أن يستهين به الآخرون، سيلازمني إلى الأبد رغمًا عنِّي ومهما حاولت تناسيه، حيث ستبقى حقيقته تعبث بي بلا انقطاع، لِما فيّ من ضعف وهشاشة، تماثل هشاشة الأشجار المنتصبة أمامي خلف زجاج النافذة. وربَّما حقًّا لا يوجد هنالك ما هو أكثر أهمِّيَّة منه، هذا التفصيل الصغير، في سبيل الوصول إلى الحقيقة الكاملة التي لا تكشف عنها تلك المقالة بإغفالها رواية الفتاة.

بقي نباح الكلب يتردَّد في الفضاء حتى آخِر ساعات الصباح، تحمله الريح تارة قريبًا منِّي وتارة بعيدًا عنِّي، إلى أن بات عليَّ أن أنطلق إلى عملي الجديد. لكن قبل أن أفعل، أتّصل بكاتب المقالة، وهو صحافي إسرائيليّ، بعد أن أنتحل شخصيَّة الواثقة من نفسها. أعرِّف نفسي، محاولة عدم التلعثم قدر المستطاع، كباحثة فلسطينيَّة، ثم أوضِّح سبب اتِّصالي. ولا يحمِّسه أيٌّ من الأمرين. أسأله إن كان بإمكانه منحي الوثائق التي بحوزته حول الحادثة. يجيب أن كلّ ما لديه موجود في المقالة. أعلِّق أنَّه مع ذلك وددت الاطّلاع عليها بنفسي، فيقول لي، إن وددتُ ذلك، يمكنني الذهاب والبحث عنها بنفسي. أسأله أين؟ في متاحف وأرشيفات الجيش الإسرائيليّ والحركات الصهيونيَّة من تلك الحقبة، وتلك المختصّة بمنطقة الحادثة.

وأين تقع؟ يردّ بصوت يشي بأنّ صبره يكاد ينفد، إنّ مقارَّها في تل أبيب وفي شمال غربي النقب. أسأله مجدَّدًا إن كان بإمكاني كفلسطينيَّة دخول هذه المتاحف والأرشيفات؟ فيجيب قبل أن يضع سمَّاعة الهاتف، أنَّه لا يجد سببًا ما يمكنه أن يحول دون ذلك. وأنا لا أجد سببًا ما يمكنه أن يحول دون ذلك أيضًا، عدا بطاقة هويَّتي. موقع الحادثة والمتاحف والأرشيفات التي توثِّقها، جميعها تقع، بحسب تقسيم الجيش للبلاد، في أماكن هي خارج نطاق منطقة «ج»، وأبعد منها بكثير، ليس بعيدًا من الحدود مع مصر؛ بينما أطول رحلة يمكنني الإتيان عليها ببطاقتي الخضراء التي تعلن بأنَّني من منطقة «أ» هي من بيتي إلى عملي الجديد. مع أنَّه، قانونيًّا، يمكن لأيّ فرد من منطقة «أ» الذهاب إلى منطقة «ب»، إن لم يكن هنالك أسباب سياسيَّة وعسكريَّة استثنائيَّة تحول دون ذلك. لكنْ لكثرتها، باتت هذه الأسباب الاستثنائيَّة، القاعدة، بحيث لم يعد يخطر ببال الكثير ممّن هم من منطقة «أ» الوصول إلى منطقة «ب». أنا شخصيًّا، في السنوات الأخيرة، لم أصل حتى حاجز قلنديا الفاصل بين منطقة «أ» ومنطقة «ب»، فكيف لي أن أفكِّر بالذهاب إلى مكان هو من البعد لدرجة يوشك معها أن يكون في منطقة «د». بل حتى أهل منطقة «ب» لا يمكنهم ذلك، وربَّما «ج»، وإن كانوا من أهل القدس، فحال نبس أيّ من هؤلاء بكلمة بالعربيَّة خارج مناطق سكناهم، يتحوّل وجودهم إلى تهديد أمنيّ كبير، في حين مسموح لهم بالطبع، كما هو الأمر بالنسبة لسكّان منطقة «ب»، التواجد في منطقة «أ»، والتي يُقْبِلون عليها باستمرار، ويقطنون فيها أحيانًا، بالرَّغم من أنَّ هذه المنطقة باتت أقرب ما تكون إلى السجن. في عملي الجديد، مثلاً، إضافة إلى مَنْ هم مِنْ أمثالي من منطقة «أ»، هنالك الكثير من الزملاء من تلك المناطق، وهم بالفعل لطفاء. فقد أفضيتُ لأحدهم، وهي زميلة من منطقة «ج» من القدس، عن حاجتي إلى الذهاب إلى منطقتها، أو أبعد بقليل، لمتابعة قضيَّة شخصيَّة؛ فمن المعتاد أن يحتاج أهل منطقة «أ» إلى الذهاب إلى منطقة «ج» لأسباب شخصيَّة، تمامًا مثلما يحتاج أهل منطقة «ج» إلى الذهاب إلى منطقة «أ» لأسباب شخصيَّة. حينها عرضَتْ تلك الزميلة عليّ استعارة بطاقة هويّتها الزرقاء، فكلّنا إخوة في النهاية، ونشبه بعضنا بعضًا، على الأقلّ من وجهة نظر الجنود على الحاجز. فعدا عن أنّهم لا يدقِّقون في أمر الفتيات من أصله، فهم لن ينتبهوا أبدًا إلى الفرق بين الصورة في بطاقة هويّتها وبيني، كونهم بالكاد ينظرون إلى المرء الواقف عند الحاجز لشدّة ازدرائهم له، زد على ذلك، أنَّه في العادة، يختلف شكل المرء في الصورة المرفقة بالبطاقة، التي يكون قد التقطها ما إن طبَّق عامه السادس عشر، عن شكله لاحقًا. حقًّا. أجل يمكنني بسهولة استخدام بطاقة هويَّتها، أقضي حاجتي وأُعيدها إليها حين نعود إلى العمل مع بداية الأسبوع القادم. لا عجلة هنالك بالمرَّة. وستمضي هي نهاية الأسبوع في رام الله مع أصدقاء لها. بالطبع، إن تمّ اكتشاف أمري، فسأقول إنّني سرقتُ البطاقة من حقيبتها، حتى لا أورِّطها. لكنْ في كلّ الأحوال، عليّ توخّي الحذر وعدم التهوُّر. بالتأكيد، سأبذل كلّ جهدي. وهكذا، في عصر آخِر أيَّام الدوام الأسبوعيّ الرسميّ، أقصد زميلتي تلك وأستعير بطاقة هويَّتها، ثم أتَّجه إلى شركة لإيجار السيَّارات، لاستئجار سيَّارة نمرتها صفراء، لا يمكن للمرء السفر في مناطق ما بعد «ج» إلّا بمثلها. لكنْ حين أهمّ بتوقيع العقد، يتّضح لي بأنّي بحاجة إلى بطاقة

اعتماد لا أملكها. ولأنّني لم أودّ أن أثقل أكثر على زميلتي تلك، أتصل بزميل آخَر لي في عملي الجديد وأطلب مساعدته، فيحضر إلى مكتب الإيجار في الحال، ويستأجر السيَّارة نيابة عنِّي مستخدمًا بطاقة اعتماده بعد أن يدرجني في العقد كسائقة إضافيَّة، كما نصحنا موظَّف الشركة، ثم أستلم المفاتيح. فعلاً، زملائي لطفاء جدًّا. والآن، لم أعد أجد سببًا يمنعني من مباشرة مهمَّتي في تقصّي الحقيقة الكاملة حول تلك الحادثة، سوى أنَّه ما إن أجلس على المقعد خلف مقود السيَّارة البيضاء الصغيرة التي استأجرتها للتوّ، وأدير المفتاح لأشغِّل المحرِّك، حتى يباشر ما يشبه العنكبوت بحياكة خيوطه من حولي، محكِمًا إيَّاها لتتحوَّل تدريجيًّا إلى ما يشبه الحاجز، الذي لا يقوى المرء على اختراقه، ليس إلَّا لشدَّة هشاشته. إنَّه حاجز الخوف، يستهلّه الخوف من الحاجز. فطالما سمعتُ أنّ ظروف عبور حاجز قلنديا اليوم، يوم السبت، من أسوأ وأصعب ما يكون، فعدا أنَّ كلّ أهل القدس يأتون إلى رام الله لشراء الخضار الطازجة من سوق حسبتها أو لقضاء حاجياتهم، يكون الجنود في مزاج انتقاميّ من عابري الحاجز الذين يجبرونهم على العمل في ما يُفْتَرَض أن يكون يوم عطلتهم، يوم السبت، الذي الربّ نفسه ارتاح فيه. على أيِّ حال، جميع المتاحف والأرشيفات الإسرائيليَّة مغلقة اليوم للسبب ذاته، ما يعني أنَّه لا يمكنني المباشرة في بحثي رأسًا. على الأقلّ ليس اليوم. أقود سيَّارتي البيضاء الصغيرة عائدة إلى بيتي، حيث ستسنح لي الفرصة في التفكير من جديد حول ما نويتُ الإقدام عليه، وربَّما الكفّ نهائيًّا عن الانسياق خلف أفكار متهوِّرة، ستكون عواقبها أليمة لا محالة، ثم التخلّص من الاعتقاد بأنَّني قادرة على كشف تفاصيل حادثة الاغتصاب والقتل تلك كما عاشتها الفتاة، وليس فقط اعتمادًا على ما يرويه الجنود الذين أقدموا على ذلك، كما يفعل كاتب المقالة. فهذه مُهمّة تقع خارج نطاق حدود قدرتي تمامًا. وكون الفتاة قُتِلَت في ما سيكون يوم مولدي بعد ربع قرن لا يعني البتَّة أنَّ موتها يجب أن يخصّني وأن يمتدّ إلى حياتي، بحيث يصبح من واجبي استنطاق روايتها. بل لا يمكنني أنا بالذات أن أقوم بهذا، مع كلّ تلعثمي وتعتعتي. باختصار، لا جدوى البتَّة من إحساسي بالمسؤوليَّة نحوها، وبأنَّها نكرة، وستبقى نكرة لن يَسْمع أحد صوتها. ومرَّة أخرى، هناك قدر لا يُحتَمل من الشقاء في الوقت الحالي الذي على المرء مجابهته، فلا حاجة لي للسعي والبحث عن المزيد منه في الماضي. عليّ أن أنسى الموضوع برمَّته. لكنْ، وما أن تحلّ العتمة بأرجاء البيت، حتى يعود عواء الكلب ليفتك بي، قاضًّا مضجعي حتى ساعات الفجر، عندما أغفو أخيرًا، وأصحو متأخِّرة، فأشرب قهوتي بسرعة، وأحمل معي كلّ ما في البيت من خرائط قبل أن أغادر. في نهاية الساحة، أجد السيَّارة البيضاء الصغيرة تقف بانتظاري، أشعَّة الشمس تكاد تغمر نوافذها الأماميَّة، وحين أفتح بابها وأدخل، يلفّني دفء حلو لم أعهد مثله منذ وقت طويل، يأخذ يعزّي نفسي المذعورة الأرِقة. أشغِّل المحرِّك ثم أنطلق نحو بوَّابة المدخل، حيث أتوقّف بانتظار اللحظة المناسبة لِوُلوج الشارع، بينما صوت إشارة ضوء الغمّاز نحو اليمين يتخلّل دقَّات قلبي المضطربة. إلى اليمين إذًا. لم أتَّجه إلى اليمين ولو راجلة منذ سنين. وأجد بعض المعالم على جانبيْ الطريق كما كانت عليها آخِر مرَّة عبرتُ المنطقة، كمطحنة القمح في كفر عقب، يقابلها ملحمة أبو عيشة في سميراميس، ثم خطّ أشجار السرو المغبرّ الذي

يحجب مبنى معهد قلنديا للتدريب المهنيّ مقابل مدخل المخيَّم، في حين معالم أخرى كثيرة قد تبدَّلتْ، ما جعل من المشهد في محصِّلته غير مألوف، كما أنَّ المطبّات والحفر في الشارع قد ازدادت بشكل كبير، وقد رحت أحاول تفاديها قدر ما استطعت، تمامًا كما فعلت السيَّارات التي أمامي وتلك التي خلفي، إلى أن توقّفْتُ بعد مدخل مخيَّم قلنديا بقليل، في نهاية صفّ السيَّارات الواقفة بانتظار عبور الحاجز، وعلى الفور، أرفع بصري باتِّجاه المرآة المعلّقة وسط السيَّارة، محاوِلة تجنُّب الإحساس بالذعر المترتّب عن النظر إلى نقطة التفتيش، فأكتشف أنّني لم أعد الأخيرة في صفّ السيَّارات المنتظِرة. هنالك على الأقلّ سبع سيَّارات تقف خلفي، وراحت تحول الآن دون إمكانيَّة الرجوع في رأيي. أسحب نَفَسًا عميقًا ثم أحوِّل بصري إلى جهة اليسار التي احتلّها محلّ لبيع إطارات السيَّارات. وإلى يميني، مزبلة كبيرة. المزبلة جديدة وكذلك الجدار خلفها. في السابق، كان هناك سياج شبكيّ تعلوه أسلاك شائكة، يخوِّل المرء رؤية مهبط مطار قلنديا في امتداده حتى الأفق. الآن، الجدار هو الذي يمتدّ حتى الأفق، تزيِّنه عبارات ورسومات مختلفة، منها اقتباسات من قوانين حمورابي، ورقم هاتف بائع عبوات غاز للطهي، ورسومات لبانكسي. إنَّ هذه المرَّة الأولى التي أشاهد فيها الرسومات في الواقع. كنت قد رأيتها من قبل في الصحف والمجلّات، تقف أمامها أحيانًا شخصيَّات مهمَّة. وبينما لم يتحرَّك صفّ السيَّارات سوى بضعة أمتار، كنت قد انتهيت من دراسة جميع الشعارات والرسومات المخطوطة فوق الجدار، الذي لم تبقَ عليه تقريبًا رقعة غير ملوَّنة، إضافة إلى صدّ كم هائل من الأولاد الذين حاولوا بيعي أشياء لا حاجة لي بها بالمرَّة. آخِرَهم كانت فتاة صغيرة، شعرها منكوش ووجهها أسمر، يسيل المخاط من أنفها، تبيع العلكة. فتحتُ حقيبتي وتناولتُ من داخلها منديلاً ورقيًّا وقدّمْتُه إليها، طالبة منها أن تنظِّف أنفها، فاختطفَتْه هي من يدي على الفور واختفتْ عن الأنظار. ثم وقبل أن تلوح أمام الخوف فرصةُ الاستفراد بي، ظهر بعض الأولاد ثانية، محاولين بيعي مناديل ورقيَّة هذه المرَّة. انصرفت عنهم بتأمُّل المشهد إلى يميني، بالتحديد، المزبلة الجديدة بألوانها المبعثرة اللانهائيَّة. لا بدّ أنَّه لا يمكن استخلاص الكثير ممّا يمكن إعادة استخدامه من بين طيَّات هذه المزبلة. إنَّها بالأحرى عصارة الزبالة، عِلْمًا بأنَّ الكثير من علب الطعام المحفوظ الفارغة، جالسة الآن على حوافّ الشرفات أو درجات البيوت تترعرع داخلها نباتات مختلفة، أو على موقدٍ ما يغلي داخلها الماء، بينما قناني المشروبات تصطفّ على رفوف الثلّاجات في البيوت، مملوءة بالماء البارد اللازم لإطفاء العطش في مثل هذا القيظ. وفضلات الطعام ستمتدّ في نهاية اليوم أمام الدجاج أو الماشية، ثم الكلاب التي تقوم بحراستها، إلى أن تجهز عليها القطط بالكامل. ثم أوراق الجرائد، بعد أن أدّت دورها الإضافيّ كأغطية للطاولات أو الأرضيَّة، لتحميها ممَّا قد يندلق فوقها من صحون الطعام، ستلتهمها نيران الأفران عاجلاً أم آجلاً، ومعها ما تبقّى من صناديق الورق الصلب التي لم تُسْتَخدم لاحتواء ما أمكن من البطاطا والبصل والثوم، وقناني الزيت والزيتون وما شابه ذلك من المؤن المحفوظة في المخازن. وأخيرًا، الأكياس البلاستيكيَّة ستستمرّ في مهمّتها باحتواء كلّ ما هبّ ودبّ، وأخيرًا المهملات، لتنتهي هنا. رجعتْ الفتاة من جديد، وذلك بعد عبور سيَّارتين فقط، وانتشلتني من انغماسي في تأمُّل المزبلة،

إذا سارعت تطرد الأولادَ الذين كانوا قد التصقوا بالسيَّارة خلال غيابها، لتستأنف بأنف نظيف من حيث توقّفتْ قبل أن تختفي، راجية إيَّاي أن أشتري العلكة منها. أنصرف أتأمّل وجهها ثم جسمها الهزيل، عندما ألمح طرف المنديل الورقيّ مدفوعًا في جيب بنطالها الصغير. يبدو أنَّها هي أيضًا ستستخدمه حتى آخر رقعة نظيفة منه. أرفع بصري إلى وجهها، وأكرِّر ما قلته لها من قبل، بأنَّني لا أحبّ مضغ العلكة. لكنْ، كما لو أنَّ ما قلته لها للتوّ كان غبارًا، وتستمرّ ترجوني أن أشتري العلكة منها. بعد وقت، أردّ بأنَّني أشدّ عنادًا منها ولن أشتري العلكة مهما حاولَتْ، غير أنَّه لا يبدو أيُّ وقعٍ لما قلتُه عليها، مستمرَّة برجائها لي بشراء العلكة، فيما هي تنقل بصرها من حقيبتي إلى ملابسي، ثم محتوى السيَّارة. أخيرًا، أقول لها إنَّ مكانها هو المدرسة وليس بيع العلكة على الحاجز. ولأوَّل مرَّة، أتأكَّد من أنَّها ليست صمَّاء أو أنَّ قدراتها العقليَّة محدودة، حين تردّ أنَّ الآن فترة العطلة الصيفيَّة. أجل، لقد نسيتُ. ثم تعود لترجوني بشراء العلكة منها. أسألها عن علاماتها في المدرسة. تردّ بحماس أنَّها جيِّدة، قبل أن تطلب منِّي شراء العلكة من جديد. أسألها عمّا تفعل بالنقود التي تجنيها من بيع العلكة، إن كانت تمنحها لوالديها مثلاً، فتردّ كلَّا، إنَّها تحتفظ بها لنفسها. أسأل كيف ستنفقها. تُجيب أنَّها ستشتري أشياء لها في العيد، ثم تعود وترجوني أن أشتري العلكة منها. أبحث عن محفظتي داخل حقيبتي، ثم أتناول منها بعض القطع النقديَّة وأمدّها نحو الفتاة الصغيرة، مردفة القول بأنّني لا أريد أيّ علكة. تأخذ هي النقود منِّي ثم ترمي بعلبتيْ علكة على المقعد الذي بجانبي قرب حقيبتي، وتفرّ هاربة. وعندها فقط، أنتبه إلى أنّني بتُّ قريبة جدًّا من نقطة التفتيش على الحاجز، لدرجة أمكنني معها رؤية الجنديّ وهو يفحص أوراق أحدهم، فينتابني بغتة ألم في قلبي وخدر في جسمي، حيث يعود عنكبوت الخوف يدبّ فيه شالًّا إيّاه بالتدريج. تدور عيناي في أنحاء المكان، مستجديتين رؤية الفتاة الصغيرة، عساها تأتي وتخفِّف برفقتها من حدّة الإحساس بالذعر الذي اكتسحني، غير أنّها كانت قد اختفت بالكامل، فألصِقُ نظري بالمنتظرين أمام نقاط التفتيش لاجتيازها راجلين، أتابعهم فردًا فردًا وهم يعبرون بين قضبان البوَّابة الحديديَّة الضيِّقة، فيما أحاول سحب أنفاسي بعمق وببطء. هؤلاء الذين هم على قدر من الحظّ بحيث يُمْكنهم عبور الحاجز، بل حتى الوقوف والانتظار عنده، إنَّهم قادرون على التنقُّل من منطقة إلى أخرى متى شاؤوا، دون أن يحتاجوا إلى استعارة بطاقة هويَّة زميلة لطيفة لهم في عملهم الجديد.. ثم أتثاءب. إنَّني منهكة تمامًا، فبالكاد نِمْتُ الليلة السابقة، كما أنّني حقًّا تعبتُ من تصرُّفاتي المتهوِّرة وحالات الخوف والقلق والاضطراب التي أوقع نفسي بها. إن لم يتمّ اكتشاف أمري، وما يترتّب على هذا من مصائب حتى لا يمكنني تخيّل حجمها، سأعود أدراجي إلى البيت بعد الفحص مباشرة، فذلك فقط يمكنه أن يضع حدًّا لحالتي هذه. أعِدُ نفسي بذلك ثم أتثاءب مرَّة أخرى، وفي منتصف تثاؤبي يقترب الجنديّ منِّي. أرى يدي وهي تمدُّ نحوه بطاقة هويَّة زرقاء. علبتا العلكة لا تزالان مرميَّتين على المقعد بجانبي. اسم العلكة «مَسْتْ»، صناعة شركة سُنُّقْرُط في الخليل. أعيد نظري إلى الأمام ولا أرى شيئًا. ثم يضرب الجنديّ سقف السيَّارة كما لو أنَّه يريد أن يصحّيني. وأنتبه. يُعيد البطاقة إليّ ويأمرني بأن أنطلق. وأنطلق. إلى الأمام. أكثر. وأكثر، إذ أخاف إن عدت

أدراجي مباشرة، سينتبه الجنديّ وكل قوَّات الأمن الواقفة على الحاجز لأمري. لكنّ الطريق إلى الأمام بعد الحاجز بقليل مسدودة بالجدار، وكذلك الطريق إلى اليسار. خياري الوحيد هو التوجُّه إلى اليمين، حيث يمتدّ شارع ضيِّق حتى الأفق لم أسلكه قطّ من قبل، ولا أعرف إن كان عليّ أن أفعل، إلّا أنَّني أترك السيَّارة تسير نحوه، ثم فوقه، يحاذيها إلى جهة اليمين مهبط مطار قلنديا، وإلى جهة اليسار أرض بور تتمطّى فوقها بين الفينة والأخرى طرقات ضيِّقة، لم أجرؤ على أن أسلك أيًّا منها، وهو أمر سرعان ما سأندم عليه حين يلوح أمامي حاجز آخَر. تبًّا! وإذ يعود الخوف يسحق قلبي، تجتاحني رغبة شديدة في النوم. وما إن أقترب من الحاجز مخفِّفة من سرعة السيَّارة، حتى أتثاءب بقوّة، فاتحة فمي على وسعه. فأسارع لستْره بكفّي، عندها يحَيّيني الجنديّ أيضًا، ويشير بيده بألّا أتوقّف وأن أمضي في طريقي، حتى أصل مفترق طرق تعلوه يافطات عدّة بالعبريَّة والعربيَّة والإنجليزيَّة، منها ما يشير إلى اليسار نحو «أورشليم (القدس)»، وإلى اليمين نحو «تل أبيب ـــــ يافو». أدور بالسيَّارة إلى جهة اليمين، ثم أوقفها بعد عشرات الأمتار على حافَّة الطريق لألتقط أنفاسي. جسمي كان يرتجف.

أحاول أن أهدأ، ولا أهدأ، فقد استقرّ الخوف في جميع أنحائه، لدرجة بات معها خفيفًا يكاد يتلاشى. كم أنّني مثيرة للأسى. ولا أدري أين أنا، كما أنّه لا يمكنني الوقوف هنا طويلاً، وإلّا أثرتُ الشبهات حولي. أسارع إلى تناول ما حملت معي من خرائط في حقيبتي، وأبسطها على المقعد بجانبي وَفَوْق المقود. من بين هذه الخرائط ما هو صادر عن مراكز للأبحاث والدراسات السياسيَّة، ويُظْهِر حدود المناطق الأربع، ومسار الجدار، وحركة الاستيطان والحواجز في الضفَّة الغربيَّة وغزَّة. خريطة أخرى تُظْهِر ما كانت عليه فلسطين حتى العام ١٩٤٨، ثم أخرى، منحتني إيَّاها شركة إيجار السيَّارات وصادرة عن وزارة السياحة الإسرائيليَّة، تُظْهِر الشوارع والمجمّعات السكنيَّة وفق الحكومة الإسرائيليَّة. بأصابع مضطربة، أحاول أن أحدِّد نقطة تواجدي الحاليَّة فوق الخريطة الأخيرة. لم أبتعد كثيرًا.

مع ذلك، لا سبيل للرجوع الآن.

آخُذُ نَفَسًا عميقًا. أجل، لا سبيل للرجوع الآن، بعد أن تجاوزت الحدود جميعها، العسكريَّة والجغرافيَّة والجسديَّة والنفسيَّة والعقليَّة. أعود إلى الخريطة الإسرائيليَّة بحثًا عن الموقع الأوَّل الذي وددت التوجُّه إليه. إنَّه نقطة سوداء متوسِّطة الحجم وغير بعيدة، يعلوها كلمة «جافا»، مكتوبة بأحرف إنجليزيَّة صغيرة، لكنْ غليظة. هناك تقع بعض المتاحف العسكريَّة ومركز أرشيف الجيش، التي يمكنني العثور فيها على معلومات أوَّليَّة حول الحادثة، كما أبلغني كاتب المقالة. أباشر بتحديد المسار الأفضل للوصول إلى تلك النقطة، مستعينة بمختلف الخرائط التي معي. فمع أنَّه مبدئيًّا أقصر المسافات بين نقطتين تقع في خطّ مستقيم، فعليًّا لا يمكنني اتِّباع هكذا مسار، ليس لأنَّ الطرقات غير مستقيمة، إنَّما لأنّه، كما تُؤكِّد بعض الخرائط، هنالك حاجزان على الأقلّ فوق المسار الأقصر الذي يؤدِّي إلى يافا. كما أنَّه لا الخرائط التي بحوزتي، ولا تلك التي ليست بحوزتي، قادرة على تحديد مواقع الحواجز الطيّارة، أو على مواكبة عمليَّة بناء الجدار المستمرَّة، التي ما برحت تقود

إلى إغلاق العديد من الطرقات. بل إنّني لم أسمع أحدًا يذكر هذه الطريق القصيرة منذ سنوات؛ بأنَّه شهد مثلاً حادث سير فوقها أو اشترى صندوق خُضار من أحد الباعة الذين عادة ما يجلسون على قارعتها. وهذا السقوط من الحديث لا يمكنه أن يكون سهوًا. إنَّما، في الغالب، يعني أنّه لم يعد بمقدور أحد السفر فوق تلك الطريق. لذا، إن أردتُ مواصلة ما أنا مقدمة عليه، محاطة بأقلّ ما يمكن من المخاطر، من الأفضل أن أسلك الطريق الطويلة لكنْ السريعة، التي يسلكها الإسرائيليُّون نحو منطقة الساحل. أشغِّل المحرِّك، وأعود أقود السيَّارة فوق الشارع ببطء وبهدوء وبحذر. بعد بضعة أمتار، يظهر إلى جهة اليمين تَفَرُّع الشارع الذي كان يفضي في الماضي إلى رام الله مرورًا بقرية بيتونيا، وكنت قد سلكته عشرات المرَّات، في طريقي إلى يافا أو غزَّة. إنَّه مسدود الآن. لقد تمّ إغلاقه هو أيضًا، كما ارتفعت في نهايته إلى جهة اليمين ألواح إسمنتيَّة بارتفاع ثمانية أمتار، تماثل تمامًا تلك المستخدمة في بناء الجدار، ورأيتها عند حاجز قلنديا، لكنْ هنا تجمّعت في ما يشبه الحصن. «سجن عوفر»، تشير اليافطة بجانب الطريق. كنت قد سمعت كثيرًا عن هذا السجن خلال السنين الأخيرة، لكن هذه هي المرَّة الأولى التي أراه فيها، فهو حديث العهد؛ تمّ إنشاؤه في العام ٢٠٠٢، في خِضَمّ موجة إعادة الاجتياحات في ربيع ذلك العام، حين جمع الجيشِ كلّ من هم فوق سنّ السادسة عشرة ودون الخمسين في الساحات العامَّة ثم حَملَهم إلى هنا. أحدهم زميل لي في عملي الجديد، وهو لطيف جدًّا، أصله من رفح، والذي استعاد مرَّة أمامنا ذكرى رائحة الزفت المسكوب حديثًا، حين كانت تتدافع إلى أنفه خلال نومه فوق الإسفلت أثناء شهور اعتقاله وقتها. خلف السجن، هنالك قاعدة عسكريَّة تختبئ وراء صفّ أشجار السرو، أمكن المرء في السابق أن يلمح عبر جذوعها وأغصانها وأوراقها الإبريَّة المغبرَّة، الدبَّابات والمركبات العسكريَّة الرابضة داخل السقائف الضخمة. عند المفترق، أدور بالسيَّارة عائدة باتِّجاه القدس، فوق الشارع رقم ٤٤٣؛ يتوجّب عليّ سلوك شارع رقم ٥٠ إلى اليمين فيما بعد، ثم شارع رقم ١ إلى اليمين ثانية باتِّجاه يافا. أواصل قيادة السيَّارة فوق شارع ٤٣٣ بتيقّظ، إلى أن ألمح بعد وقت قصير حاجزًا آخر فوقه، فيعود صدى نبضات قلبي يتردَّد في رأسي، فيما يروح يتراقص أمام عينيَّ ما يشبه خيوط شبكة العنكبوت الممزّقة. يزداد اقترابي من الحاجز. لا بدّ لي من أن أعبره. الجنود الذين اصطفّوا عنده لا يعبأون بإيقاف أحد، بمن فيهم أنا في الغالب. عليّ ألّا أخفِّف كثيرًا من سرعة سيَّارتي. عليّ أن أثق بأنّني سأعبر. وأعبر! لكنْ بعد الحاجز، تتبدّد ثقتي بالكامل ولا أعود أدري أين أنا! ولا أعرف إن كنت قد سلكت هذا الشارع من قبل كما حَسِبْتُ في البداية، أم لا. فالشارع الذي عهدته حتى قبل بضع سنين كان ضيِّقًا ومتعدِّد الالتواءات، في حين هذا شديد الاتِّساع والاستقامة. كما أنَّ جدرانًا بارتفاع خمسة أمتار قد عَلَتْ على جانبيه، تليها مبانٍ جديدة كثيرة، تجمّعت في مستوطنات لم تكن موجودة من قبل أو كانت شبه غير مرئيَّة، بينما القرى الفلسطينيَّة التي كانت هناك، اختفت غالبيَّتها. أرفع رأسي فاتحة عينيَّ جيِّدًا بحثًا عن أيّ أثر لهذه القرى ولبيوتها المتناثرة بتلقائيَّة أشبه بالصخور فوق الهضاب، تصل بينها طرقات ضيِّقة تتلكّأ في انحناءات عديدة، لكنْ بغير جدوى. لم يعد من الممكن تبيّن أيّ منها. وكلَّما استمرّيت في مسيري، لم أعد أعرف

أين أنا! حتى لمحتَ، إلى جهة اليسار من الطريق، شارعًا فرعيًّا آخر مسدودًا، تأكّدتُ عقبها من أنّني فعلاً عَبَرْتُ هذه الطريق عشرات المرّات في السابق، فهذا الشارع الفرعيّ المسدود الآن بكومة من التراب وبعض المكعَّبات الإسمنتيَّة الضخمة، يقود إلى قرى الجيب. أوقف السيَّارة عند مطلعٍ تفرّعه، ثم أترجَّل منها، وأقترب من كومة التراب والإسمنت التي سدّته، حتى أتأكّد من وجودها تمامًا وبأنَّه لا يمكن تحريكها، كما لا يمكن لسيَّارتي ولا لأيّ سيَّارة أخرى اجتيازها. وهي جميلة، هذه الطريق، في تمايلها تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار، عابرة بين التلال المرشومة بأشجار الزيتون والقرى الصغيرة التي يغلِّفها السكون، حتى بيت إكسا. أرجع إلى السيَّارة، أفتح الخريطة الصادرة عن الجهة الإسرائيليَّة، وأدرس ثانية المسار الذي يسلكه الإسرائيليُّون عادة نحو الساحل. إذًا، بعد الهبوط إلى عمق الوادي في شارع رقم ٥٠، يجب عندها سلوك الطريق السريع شارع رقم ١ الذي يتفرَّع إلى اليمين، ثم السير عليه لفترة طويلة، دون الحياد يمنة أو يسرة. أدقِّق في المنطقة المحاذية لشارع رقم ١، والتي تبدو حسبما تُظهِر الخريطة، مأهولة بالمستوطنات بالأساس. القريتان الفلسطينيَّتان الوحيدتان الباديتان فوقها، هما: أبو غوش وعين رافا. أعود وأفتح الخريطة التي تصوِّر فلسطين حتى العام ١٩٤٨، وأجول ببصري فوقها، متنقِّلة بين أسماء القرى الفلسطينيَّة العديدة، التي تمَّ تدميرها بعد تشريد قاطنيها ذلك العام، فأتعرَّف على عدد منها والقادم منه بعض من زملائي ومعارفي، مثل قرية لفتا، والقسطل، وعين كارم، والمالحة، والجورة، وأبو شوشة، وساريس، وعنابة، وجمزو، ودير طريف. لكنَّ غالبيَّتها أسماء تبدو مجهولة بالنسبة لي، لدرجة راحت تثير فيّ إحساسًا ما بالوحشة. خربة العمور، وبير ماعين، والبرج، وخربة البويرة، وبيت شنة، وسلبيت، والقباب، والكنيسة، وخروبة، وخربة زكريّا، والبرِّيَّة، ودير أبو سلامة، والنعاني، وجنداس، والحديثة، وأبو الفضل، وكسلا، وأخرى كثيرة. أعيد نظري إلى الخريطة الإسرائيليَّة. منتزه كبير جدًّا يُدْعى منتزه «كندا»، يغطّي الآن مساحة جميع هذه القرى. أغلق الخرائط، أشغِّل محرِّك السيَّارة، وأنطلق فوق شارع رقم ٥٠ دون أن أواجه أيّ عائق هذه المرَّة، إلى أن أصل الطريق السريعة الطويلة. بعد وقت من المسير فوقها، أبدأ بهبوط جبال القدس باتِّجاه مفترق بيت شيمين وِفْقَما تشير اليافطات، والذي قد يكون اسمه الأصليّ بيت سوسين على اسم القرية القريبة التي تظهر في الخريطة من العام ١٩٤٨، ولم تعد موجودة. بقي منها بيت واحد فقط لم يتمّ هدمه، ألمحه إلى يساري محاطًا بأشجار السرو، تخترق الأعشاب حجارته.

تواصل السيَّارة اختراق المشهد بسرعة كبيرة، فوق طريق تكاد تكون مستقيمة تمامًا. مع ذلك، لا أكفّ عن النظر إلى الخريطة الإسرائيليَّة المفرودة فوق المقعد بجانبي، خوفًا من أن أتوه في ثنايا هذا المشهد الذي يشعرني بغربة كبيرة بعد غياب طويل، مع كلّ التغييرات الحاصلة له، مواصلاً التأكيد على الغياب الكامل لوجود ما هو فلسطينيّ فيه؛ في أسماء المدن والقرى المخطوطة فوق اليافطات، وفي لائحات الإعلانات المكتوبة بالعبريَّة، وفي المباني حديثة العهد، وحتى الحقول الشاسعة التي تحدّ الأفق إلى يميني وإلى يساري. إلّا أنَّها بعد اختفاء، تعود الذبابة لتحوم حول اللوحة، وتبدأ تطفو تفاصيل صغيرة على طول الطريق تشي بهذا الوجود خلسة.

غسيل منشور خلف محطة وقود، ثم سائق مركبة بطيئة أجتازَها. شجرة دوم تنتصب بين الحقول بمفردها، وسرِّيسة قديمة. ثم بضعة رعاة يقفون مع قطيع ماشيتهم على تلّ بعيد. أُعيد بصري إلى الخريطة الإسرائيليَّة للحظة قصيرة، للتأكُّد مرَّة أخرى من أنَّه عليّ سلوك مخرج كيبوتس جالويوت إلى اليمين، والذي تبشِّر بمقدَّمه لاحقًا بضع يافطات ضخمة، ذلك ما إن تبدأ مبانٍ شاهقة حديثة البناء تلوح في الأفق. من هناك، سأتَّجه إلى اليسار، فوق شارع سلامة، حيث سأستمرّ في المسير باتِّجاه مدينة يافا، أو «يافو»، كما تعلن اللافتات التي توجّهني إليها، ذلك إلى أن ينجلي خطّ الأفق الأزرق. البحر! ها هو، في الحقيقة، بعد سنين غياب تحوّل خلالها إلى لون أزرق فاتح محايد على الخريطة، ليس أكثر. ويروح البحر الآن، لا اللافتات، يقودني نحو المدينة، حيث لا أقوى على مقاومة اختلاس النظر إلى زرقته المرتعشة، بين كلِّ فينة وأخرى، فيما أنا أقود السيَّارة فوق الشارع الكئيب الذي تحاذيه معامل وورشات لتصليح السيَّارات، ذلك حتى أوشك على التسبُّب في حادثة! في إحدى التِفاتاتي القصيرة إلى سطحه المتوهِّج تحت شمس الظهيرة، أنتبه فجأة، لكن متأخِّرًا إلى عبوري الإشارة الضوئيَّة وهي حمراء في تقاطع لأربع طرق في كلٍّ منها ثلاثة مسارات، وبسرعة تتوقّف جميع السيَّارات وتدعني أعبر. تبًّا! ما الذي فعلته! بعد أن أعبر التقاطع، أوقف السيَّارة بجانب الطريق لألتقط أنفاسي، فيما يعود الإحساس بالخدر يمتدّ في جميع أطرافي ويثقلها. يا لخراقتي، هذا الحدّ بالذات لا يمكنني تجاوزه. ولا أنجح في أن أهدأ. لكنْ عليّ التحرُّك من مكاني على الفور، فالسيَّارة ما زالت تعيق حركة السيَّارات خلفي. أرجع أقودها بسرعة بيدين خفيفتين مرتجفتين، فيما قدماي بالكاد تقويان على دوس دعَّاسات الوقود والغيارات والفرامل، حتى أصل إلى نهاية الشارع، فأدور إلى جهة اليسار بضعة أمتار ليس أكثر، باتِّجاه المحطَّة الأولى في بحثي، متحف تاريخ الجيش الإسرائيليّ. حين أبلغه، أجد موقف السيَّارات الخاصّ به شبه فارغ، ممَّا يخفِّف من حدَّة اضطرابي، لكنَّه كذلك يجعل من مهمَّة إيجاد مكان بعينه أركنُ السيَّارة فيه أمرًا صعبًا إلى حدٍّ ما. فلا أدري إن كان من الأفضل أن أوقفها في الظلّ، أم أقرب ما يمكن من المدخل، أم في نقطة آمنة ومكشوفة لمنع سرقتها، أم في مكان لا يرغب أحد في صفِّ سيَّارته فيه، وبذلك أقلِّل من احتمال تعرُّضها ولو لخدش بسيط. وبعد أن أتمكّن من ركنها بعد برهة ليست قصيرة من التردُّد، أضع جميع الخرائط وقميصي الذي خلعته لشدَّة الحرّ، في حقيبتي، ثم أُلْحِقُ بها علبتي العلكة المرميَّتين على المقعد بجانبي، بعد أن أفتح إحداهما وأتناول من داخلها قطعتين وأرميهما في فمي. على الأقل، أمتصّ السكّر منهما، فعدا القهوة، لم أتناول شيئًا منذ الصباح.

أخرجُ من السيَّارة وأمشي باتِّجاه مدخل المتحف برويّة، ثم أعبره باتِّجاه ردهة الاستقبال، متَّجهة مباشرة صوب صندوق التذاكر، حيث أكتشف أنَّ جنديًّا يقف خلفه. يرفع الجنديّ رأسه نحوي مبتسمًا. أتقدَّم نحوه. ولا يطلب منِّي رؤية بطاقة هويَّة زميلتي اللطيفة، التي أتركها داخل الحقيبة. أمدّ رسوم بطاقة الدخول نحوه. وبالفعل، يتناول منِّي الرسوم قبل أن يمنحني بطاقة الدخول، ثم يُعْلِمُني بأنَّه عليَّ ترك حقيبتي في خزانة الودائع، ليس أكثر. لا بدَّ أن يكون ارتداؤه الزيّ العسكريّ جزءًا من المعرض. آخذ معي فقط محفظتي ودفترًا صغيرًا لتسجيل الملاحظات

وقلمًا، فالتصوير ممنوع في الداخل، كما يعلمني أيضًا. لكنّه، على أيّ حال، ليس بحوزتي آلة تصوير. أغادر ردهة الاستقبال صوب ساحة المتحف، التي يتوجّب على المرء عبورها كي يتمكّن من دخول قاعات العرض الستّ عشرة، كما يشير الكُتَيِّب الذي منحني إيَّاه الجنديّ مع التذكرة. وحين ألجُ الساحة، يستقبلني على الفور ضوء أبيض حادّ يعمي البصر، عكَسه نحوي الحصى الأبيض الذي تكوَّنت منه أرضيَّتها، وراح مسيري فوقه يثير ضجيجًا مريعًا يلسع الأذنين. في الواقع، أنا لا أطيق الحصى مثلما لا أطيق الغبار. على الرَّغم من ذلك، أواصل دوراني في أنحائها، لكنْ بحذر، محاوِلة تفادي تفاقم ضجيج الحصى، بينما يكاد خيالُ بعض المركبات العسكريَّة القديمة المنتشرة فوقها يبلغ عينيّ شبه المغمضتين، حتى أنتبه إلى أنَّ الكُتَيِّب يشير بأنَّ هذه هي المحطَّة السادسة عشرة والأخيرة وفقًا لترتيب المعرض، بعد زيارة الصالات الداخليَّة. وإذ يعتريني القلق كون تجوالي هذا لا يتماشى مع المسار المقترح من قبل المتحف، وأنَّه قد يفسد عليّ التجربة برمَّتها، أتوجّه على الفور إلى صالة العرض الأولى. ولحظة تطأ قدماي مدخلها، تاركة الحرّ الشديد اللزِج الذي أثقل الساحة خلفي، تعتلي القشعريرةُ بدني جرّاء الهواء البارد المتدافع باتِّجاهي من المكيِّف، فأسارع إلى تغطية ذراعيّ بكفَّيّ الممسكتين بمحفظتي ودفتر ملاحظاتي لتدفئتهما، فقد تركتُ قميصي ذا الكمَّيْن الطويلتين مع حقيبتي في خزانة الودائع. لكنْ بغير جدوى. يعود الارتجاف يعبث بجسمي، فيما أجول الصالة الفارغة تمامًا إلَّا من جنديّ يقوم على حراسة المكان. وأحاول جاهدة السيطرة على ارتجافي منعًا لإثارة ارتيابه، مواصلة التجوال على مهل بين المعروضات في الصالة. من ضمن هذه المعروضات، أجد خريطة لمنطقة الجنوب، وبعض المراسلات بواسطة التلغراف بين الجنود المتمركزين هناك خلال فترة نهاية الأربعينيَّات، تغلبها عبارات تشجيعيَّة بطوليَّة. إلَّا أنَّ الارتجاف لا يكفّ. آخذ نَفَسًا عميقًا، ثم أستدير نحو الجنديّ الحارس وأجده يحدِّق باتِّجاهي. أدور بهدوء، وأستمرّ في مسيري مبتعدة باتِّجاه الصالة الثانية. هناك يتلاشى ارتجافي بالتدريج أمام مجموعة من الصور والأفلام الدعائيَّة التي تمّ إنتاج بعضها في فترة الثلاثينيَّات والأربعينيَّات من قِبَل بعض طلائعيي السينما الصهيونيَّة، كما تشير المعلومات المرفقة. الأفلام تعرض حياة المهاجرين الأوروبيِّين اليهود في فلسطين، وبخاصَّة انغماسهم في العمل الزراعيّ والحياة التعاونيَّة في المستوطنات. يوقفني فيلم بعينه من بينها، تظهر في بدايته في الكادر مساحة جرداء، تدخلها فجأة مجموعة من المستوطنين بملابسهم القصيرة، والذين يبدأون ببناء برج عالٍ وسقائف خشبيَّة، إلى أن ينتهي الفيلم بها مَبْنِيّة بالكامل، في حين يجتمع المستوطنون أمامها ليرقصوا متشابكي الأيدي في حلقة دائريَّة. أحاول رؤية الشريط ثانية، فأباشر بإعادته إلى نقطة البداية، عندها يبدأ المستوطنون بفكّ حلقة الرقص والرجوع إلى السقائف التي انتهوا من بنائها للتوّ، ويأخذون بتفكيكها وبتحميلها فوق العربات، ثم يخرجون من الكادر. أعود وأقدِّم الشريط إلى الأمام ثانية. ثم أرجعه إلى الوراء. مرَّة تلو الأخرى أبني المستوطنات ثم أفكِّكها، حتى أتذكّر بأنَّه عليّ عدم إضاعة وقتي أكثر هنا، فلا يزال عليّ زيارة صالات عديدة أخرى ومشاهدة معروضاتها، ثم رحلة طويلة لا تزال بانتظاري. أكمل جولتي حتى أصل الصالة

السادسة، التي أمكث فيها وقتًا أطول ممَّا أمضيت في الصالات السابقة، إذ تضمّ معروضاتها ملابس ومعدّات عسكريَّة مختلفة ارتداها جنود مصنوعون من الشمع. ووفق المعلومات الواردة، جرى الاعتماد على استخدام غالبيَّتها خلال فترة الأربعينيَّات. ألاحظ أنَّ الزيّ العسكري وقتها اختلف عن الزيّ الحالي للجيش، فبينما الحالي لونه أخضر زيتي غامق، لون الزيّ القديم رماديّ، ويأتي في سراويل طويلة وقصيرة، يعلوها حزام عريض من القماش، به جيب جلديّ لحفظ السلاح، وكذلك جيوب صغيرة لتخزين الرصاص، ومكان مخصّص لتعليق مطَّارة المياه. من بين هذه الأحزمة أيضًا ما يجري ربطه حول الخصر وأخرى حول الصدر. كما ويضع جنود الشمع حقائب من القماش على ظهورهم، وقبّعات صغيرة وكبيرة على رؤوسهم. أمّا أحذيتهم، فهي شبيهة جدًّا بتلك التي يرتديها الجنود في الوقت الحالي. ثم في منتصف الصالة، وُضِعت صناديق زجاجيَّة ضخمة، عُرِضَتْ داخلها مختلف المعدَّات وأواني الطعام التي استُخْدِمتْ آنذاك، من بينها عُلب حديديَّة صغيرة مستطيلة الشكل، تتّصل بها سلسلة مربوط بها ملعقة وشوكة وسكّين، إضافة إلى معدَّات أخرى، كأدوات الحلاقة والصابون وإلى آخره. إلى جانب هذه جميعًا، وقفتْ مجسَّمات صغيرة تصوِّر الخيم التي كانت تأوي الجنود أو تلك التي كانت تُستَخدم كقاعات لتناول الطعام، أو لاجتماعات القيادة. أنتقل فيما بعد إلى الصالات التالية التي لا تحتوي على معروضات تسترعي الاهتمام كثيرًا، ذلك حتى أبلغ الصالة الثالثة عشرة. تحوي الصالة الثالثة عشرة جميع أنواع الأسلحة الخفيفة التي جرى استعمالها حتى الخمسينيَّات. أطوف وحدي بينها بتوجُّس، متأمِّلة أشكالها وأحجامها المختلفة وأحجام طلقات رصاصها المعروضة معها داخل صناديق زجاجيَّة، وأقرأ ما يرافقها من شرح بانتباه، قبل أن أتوقّف أمام بندقيَّة تومي. تشير المعلومات المرفقة بأنَّ هذه البندقيَّة هي عبارة عن مدفع رشَّاش أميركيّ الأصل، صنعه جون ت. تومسون في العام ١٩١٩، ومن هنا تأتي تسميته «تومي»، وقد جرى استخدامه بشكل واسع خلال الحرب العالميَّة الثانية من قبل قوَّات الحلفاء، وبخاصَّة ضبّاط الصفّ وقادة الدوريّات، ثم في حرب العام ١٩٤٨، ولاحقًا في الحرب الكوريَّة، ثم في حرب ؟يتنام، إضافة إلى حروب أخرى كثيرة. ويمتاز هذا السلاح، كما يضيف الشرح، بمقدرته على تصويب الرصاص على الهدف حتى مدى بعيد، وفي الوقت ذاته، بالقدرة على التحكُّم به في القتال عن كثب. أرسمه في دفتري الصغير. كم بتُّ رسَّامة رديئة، مع أنّني كنت ذات يوم أرسم وأنقل الأشكال بدقَّة عالية. لكنْ الآن خطوط رسمي حادَّة مضطربة، وتفتقد التوازن، ممَّا شوَّه من شكل السلاح، بحيث لم يعد شبيهًا فعلاً بسلاح الجريمة الذي اسْتُعْمِلَ في صباح ١٣ آب ١٩٤٩. وفجأة، يعلو هدير قويّ في الصالة، فأنتفض من مكاني، ويبدأ جسمي بالارتجاف. ثم، أغادر الصالة الثالثة عشرة إلى الساحة قبل أن يُحْكِم المكيِّف برودته على فضائها بأكمله. في الساحة، أصطدم من جديد بالمركبات العسكريَّة التي استُعْمِلت في تلك الفترة وشاهدْتُها في البداية، وبموجة الحرّ الثقيل والضوء الأبيض الذي يعمي البصر، إلَّا أنَّ اللون الأخضر الغامق لقميص الجنديّ الحارس الذي لمحته من قبل في الصالة الأولى، وكان يجول الآن في الساحة هو الآخر، أراح عينيّ قليلاً. لكن ليس حالتي النفسيَّة. ومع بوادر عودة الإحساس بالذعر، أترك الساحة متّجهة نحو

ردهة الاستقبال، أستعيد حقيبتي من خزانة الودائع، ثم أتّجه إلى سيَّارتي البيضاء الصغيرة، التي أجدها لا تزال تقف وحدها في موقف السيَّارات. في الواقع، لا حاجة لي أن أمكث في هذه المدينة أكثر. لن تكسبني هذه المتاحف الرسميَّة أيّ معلومة، أو حتى تفصيل ذي قيمة، يمكنه أن يعينني على استنطاق رواية الفتاة. أعود وأفتح الدفتر الصغير، لأتأمَّل رسمي الأهوج لبندقيَّة التومي، حيث بَدَتْ أقرب إلى قطعة خشبيَّة مهترئة منها إلى سلاح قاتل. أضع الدفتر في الحقيبة، ثم أتناول الخريطة الإسرائيليَّة لأحدِّد مساري نحو وجهتي القادمة فوقها. عليّ أن أتَّجه إلى الطريق السريع رقم ٤ الذي يقود إلى الجنوب، ثم بعد عسقلان وقبل غزَّة، إلى اليسار نحو شارع رقم ٣٤، ثم عند سديروت إلى اليمين فوق شارع ٢٣٢، حتى أصل محطَّتي القادمة. أرمي الخريطة على المقعد بجانبي، ثم أتناول العلكة من فمي وألقي بها في منفضة السيَّارة، وأنطلق.

تحت تلك الخريطة، تقبع الخرائط الأخرى، بما فيها تلك التي تصوِّر ما كانت عليه فلسطين حتى العام ١٩٤٨، لكنَّني لم أفتحها هذه المرَّة. يكفي ما أعرف من أشخاص أصلهم من هذه المناطق، كي أدرك كم من القرى والمدن امتدَّت حول يافا وحتى عسقلان إلى وقت ليس بالبعيد، قبل مسحها عن وجه الأرض. أمّا على طول الطريق، فقد اجتمعت أسماء مدن ومستوطنات وأشكال بيوت وسهول ونباتات وشوارع ويافطات عريضة ووجوه ناس، كلّها ترافقني، لتعود وتنبذني من جديد، مؤجِّجة من إحساسي غير المبرَّر بالقلق أثناء رحلتي، إلى أن ألمح نقطة تفتيش يقف عندها رجال شرطة يتفقَّدون بطاقات هويّات ركّاب حافلة بيضاء صغيرة على مشارف رهط. ها هم! كما وهنالك شرطيّ يقف على حافَّة الشارع، على أهبَّة الاستعداد لاختيار إحدى المركبات ومن ثم إيقافها وإخضاعها للفحص. تبدأ دقَّات قلبي بالخفقان متسارعة في أدنى حلقي. يجب أن أحيل بصري عنه. وبسرعة، أَلْتَفِتُ نحو حقيبتي قبل أن أدفع بيدي اليمنى داخلها، باحثة عن إحدى علبتيْ العلكة، وحين أجدها، أتناول منها قطعة علكة وأرميها في فمي، ثم أباشر بمضغها معلِّقة بصري بحدود التلال المترامية إلى يسار الطريق. عليّ أن أهدأ. ومع أنَّ السيَّارة كانت تسير بسرعة تسعين كيلومترًا في الساعة، إلَّا أنَّها أخذت تتلكَّأ في كلِّ متر تتقدّمه نحو نقطة التفتيش، حتى أوشكتْ على التوقُّف تمامًا عند بلوغها إيّاه، فأبلع ريقي مواصلة مضغ العلكة، ثم في اللحظة التي تجتازه، تعود فجأة لتسير وفق سرعتها السابقة. وآخذ نَفَسًا عميقًا حين يلوح مشهد رجال الشرطة في المرآة المعلّقة وسط السيَّارة وهم منشغلون بفحص هويّات ركّاب الحافلة البيضاء، على مقربة منهم ظَهْرُ الشرطيّ الذي وقف يتأمّل السيَّارات المارّة أمامه، لا يزال على أهبّة انتقاء إحداها وإخضاعها للفحص.

أواصل جلوسي خلف المقود، إلى أن يعود التعب ينقضّ عليّ مرَّة أخرى، فأرمي برأسي إلى الوراء. كانت الآن حركة السيَّارات قد خفّت إلى درجة كبيرة، وقد تقدَّمت جنوبًا إلى الحدّ الذي استبدلتْ فيه تلالَ الرمل البيضاء المرشومة بالحجارة الصغيرة، تلال رمال صفراء بدت ناعمة الملمس، زُرِعَت فوق بعضها نباتات ضامرة ذات خضرة كئيبة، أشبه بالخسّة المخمِّجة التي حاول بيعي إيّاها ذلك البائع

غير المحترف بثلاثة أضعاف سعر الخسَّة العاديَّة في حسبة رام الله المغلقة. مع ذلك، أوقف السيَّارة قرب أحد هذه الحقول كي أرتاح قليلاً. أتناول العلكة من فمي وأضعها في المنفضة، ثم أطبق جفنيَّ محاوِلة أن أغفو لدقائق فقط في مقعدي. لكنّني لا أنجح؛ كما لو أنَّ إحساسًا بالقلق قد لسعني، وراح يمنعني من ذلك. وأخيرًا، بعد أن أفقد الأمل في أن أرتاح، أتناول الخرائط من المقعد بقربي. أفتح أوَّلاً تلك الصادرة عن الجهة الإسرائيليَّة وأحاول تحديد النقطة التي أنا فوقها بالاعتماد على الرقم المكتوب على آخِر يافطة لمحْتُها بجانب الشارع. تبقّى عليّ السير في خطٍّ مستقيم، مع أنَّه قصير، لبلوغ هدفي القادم، والذي بدا فوق الخريطة نقطة سوداء صغيرة وحيدة تقريبًا في بحر أصفر واسع. بعدها ألتقطُ الخريطة التي تصف البلاد حتى العام ١٩٤٨، لكنّني أغْلِقها بسرعة إذ يجتاحني الفزع، فالقرى الفلسطينيَّة التي يبدو أنَّ البحر الأصفر البادي في الخريطة الإسرائيليَّة قد ابتلعها تمامًا، تظهر في هذه الخريطة بالعشرات، أسماؤها تريد القفز من فوق الورق نحوي. أشغل محرِّك السيَّارة ثانية، وأنطلق صوب نقطة مرادي.

وأراها من بعيد، في قلب التلال الصفراء، يمتدّ بينها وبيني شارع إسفلتيّ ضيِّق، تصطفّ الأزهار وأشجار النخيل القزمة عند نهايته التي تفضي إلى بيوت ذات قرميد أحمر. مستوطنة «نيريم». حين أصل الحاجز المنصوب عند مدخلها الرئيسيّ، أوقف السيَّارة وأمكث فيها، بانتظار أن يطلّ أحدهم عليّ، إلَّا أنَّ شيئًا من ذلك لا يحدث. بعد وقت، أقترب أكثر من البوَّابة الحديديَّة ومن غرفة الحراسة، التي لا ألمح أحدًا داخلها، فأنزل من السيَّارة وأتَّجه إلى البوّابة. الشمس قويَّة جدًّا. أمسك بقضبان البوّابة الحارَّة، ثم أشدّها إلى الخلف وأفتحها بنفسي. أرجع إلى السيَّارة، أعبر البوَّابة، ثم أنزل، أغلقها خلفي، أرجع إلى السيَّارة وأنطلق فيها على مهل داخل المستوطنة، حيث أصل سريعًا إلى ما يبدو أنَّه الجزء القديم منها. المكان يبدو مهجورًا تمامًا. إلى يميني إسطبل ضخم، وبجانبه خزَّان مياه يعلو برجًا خشبيًّا قديمًا، وإلى يساري الشارع، يليه عدَّة سقائف، تشبه إلى حدٍّ كبير تلك التي شاهدتُها عند الظهيرة في الفيلم المعروض في متحف الجيش في يافا. على الأغلب، هذا هو موقع الجريمة. ربَّما تكون هذه السقيفة هي التي اسْتُخْدِمَتْ كمسكن لقائد الفصيلة، وتلك التي تبدو أشدّ قِدَمًا هي حيث تمَّ احتجاز الفتاة ومن ثم اغتصابها من قِبَل بقيَّة الجنود. أترجّل من السيَّارة باتِّجاه السقيفتين. أقف أمامهما لبعض الوقت، أتأمَّلهما، قبل أن أدور حولهما قليلاً. ثم أمشي باتِّجاه مخزن كبير. أقترب منه، فأجده مقفلاً. أعود إلى الدوران حول السقيفتين، ثم الخزّان على الجهة الأخرى من الشارع، إلى أن ينتابني بغتة الإحساس بالخوف. أو ربَّما أنَّ هذا الخوف موجود طول الوقت داخلي، وهو فَحَسْب يداهمني متى يشاء، مثل الآن، فأرجع إلى السيَّارة بسرعة وأحاول أن أهدِّئ نفسي. يجب أن أهدأ. أشغِّل المحرِّك، وأعود أدراجي باتِّجاه مدخل المستوطنة. لكنْ، قبل وصوله ببضعة أمتار، أتَّجهُ في الشارع الذي يتفرَّع إلى جهة اليسار. لا يمكنني المغادرة بهذه السهولة، بعد كلّ ما كابدته من أجل الوصول إلى هنا. أروح أقود السيَّارة بغير وجهة واضحة فوق الشارع الذي حاذت جانبه الأيسر بيوت حديثة كبيرة، امتدَّت أمامها مساحات من العشب شاحب الخضرة، وإلى جانبه الأيمن انتصب سياج شائك، ظهرت عبره تلال الرمل التي تمطّت بسكون حتى

السماء. أواصل دوراني داخل السيَّارة في أنحاء المستوطنة، فيما لا تزال هي خالية من البشر، إلى أن ألحظ أخيرًا بين أبواب بيوتها الموصدة بابًا زجاجيًّا نصف مفتوح، تمتدّ أمامه شبكة حماية من الحشرات، فأوقف السيَّارة في منتصف الشارع بسرعة وأقفز منها، صائحة بالإنجليزيَّة مرحبًا. إلَّا أنَّ أحدًا لا يردّ، فأصيح مرَّة أخرى بصوت أعلى، «مرحبًا». بعد لحظات، يطلّ شابّ ربَّما يكون في الثامنة عشرة من عمره. أسأله عن مقرّ أرشيف المستوطنة أو متحفها. يوجِّهني الشابّ إلى المدخل الرئيسيّ، واصفًا لي مبنى أبيض صغيرًا؛ هناك مقرّ المتحف والأرشيف معًا، يخبرني. أعود إلى السيَّارة ليغمرني الإحساس بالخوف ثانية. مع ذلك، أواصل مسيري حتى أصل مدخل المستوطنة، فأوقف السيَّارة قبل نهاية الطريق، هذه المرَّة على قارعته، ثم أنزل منها وأغلق الباب ورائي، لينضمّ صوت طَرْقِه لزقزقة العصافير التي سادت الفضاء. أقتربُ من مبنى أبيض قديم صغير يشبه الذي وصفه الشابّ لي. أقرع الباب، وأنتظر أمامه لبعض الوقت. لا أحد يُجيب. بعدها أصيح مرحبًا بالإنجليزيَّة، ثم مرَّة أخرى بصوت أعلى. تمضي لحظات قبل أن يأتي الردّ من خلفي. أدور نحو مصدر الصوت، لأجد رجلاً في بداية السبعينيَّات من عمره يقف قبالتي. أقول مرحبًا للمرَّة الثالثة، ثم أسأله إن كان يعرف إذا ما كان هنالك أحد في الداخل. يقول إنَّ الأرشيف مغلق الآن، ثم يسألني حول ما أريد بالضبط. أقول بصوت يشوبه الالتجاج، إنّني وددت التعرُّف على تاريخ نيريم والاطِّلاع على بعض الوثائق عن كثب، من أجل بحث أجريه حول المنطقة، ولقد جئت من مكان بعيد جدًّا لهذه الغاية. يردّ بعد برهة قصيرة من الصمت أنَّه هو الشخص المسؤول عن المتحف والأرشيف، وسيفتحهما لأجلي فقط، مع أنَّه رسميًّا تمّ إغلاقهما الساعة الواحدة بعد الظهر. أشكره بحماسة على ذلك، في حين يكاد دويّ نبض قلبي يُفزع العصافير لشدّة طرقه لحظة يباشر بفتح الباب. ثم ندخل، العرق يتصبَّب من وجهينا. يعرِّفني باسمه، ثم يوجّهني للجلوس إلى طاولة كبيرة تتوَسَّط غرفة شبه فارغة، قبل أن يدنو من خزانة حائط بيضاء تقف إلى يمين باب المدخل. الحرّ شديد، أليس كذلك؟ يسألني بينما يباشر بفتح جوارير صغيرة داخل الخزانة، ويخرج منها بعض المغلّفات. أجل، لا يُطاق، أجيب، فيعلِّق هو أنَّه في الواقع لا يمقته. إنَّه يذكِّره إلى حدٍّ ما بحرارة الجوّ في أستراليا. لقد هاجر من أستراليا في الخمسينيَّات، ومنذ أن وصل هنا وهو يقطن المستوطنة. واسمي؟ أجيب بأوَّل اسم غير عربي يخطر ببالي. وبحثي؟ إنَّها دراسة حول التضاريس الجغرافيَّة ـــــ الاجتماعيَّة في المنطقة خلال فترة نهاية الأربعينيَّات وحتى بداية الخمسينيَّات. يعود هو إلى الطاولة حيث أجلس، حاملاً معه مغلّفات عدّة تناولها من الجوارير، ويجلس قربي، ثم يبدأ بإخراج عشرات الصور الفوتوغرافيَّة من داخلها، ناثرًا إيَّاها فوق سطح الطاولة الشديد البياض. في هذه الأثناء، يشرح لي أنَّه ليس باحثًا مختصًّا مثلي. هو فقط يهوى التصوير والتاريخ، وهذا ما جعله يعمل على إنشاء هذا المتحف البسيط في محاولة لحفظ تاريخ وأرشيف نيريم. أبدأ بتقليب الصور، بعد أن أسأله أن يحدِّثني عن تاريخ المستوطنة. ويبدأ الحديث بصوت هادئ وواضح، لا يشوبه أيّ تلعثم أو تعتعة أو التجاج، لدرجة يبدو معها أشبه بخيط دقيق لا التواء فيه، وليس من السهل لأحد أن يقطعه، «وُضِعَ حجر الأساس لتأسيس نيريم في ليلة الغفران من العام ١٩٤٦، ذلك

إلى جانب عشر مستوطنات أخرى، حيث شرعت مجموعة من أفراد حركة الشبيبة «هشومير هتسعير»، ومن الشباب الأوروبيِّين الذين وصلوا إلى البلاد مع نهاية الحرب العالميَّة الثانية، ببنائها في النقب. كان الهدف من هذه الحملة وقتها توسيع رقعة الاستيطان اليهوديّ في منطقة الجنوب.

«وهكذا، تحت جنح الظلام وبحماية حركة الهاجانا وبقيادتها، خرجت ثلاثمائة شاحنة محمّلة بأكثر من ألف شخص نحو النقب، دون اعتراض أو مضايقة أحد لهم، بمن فيهم السلطات البريطانيَّة التي لم تعرف عن الأمر شيئًا، إذ تّم الترتيب للحملة بسرِّيَّة كاملة وحتى دون معرفة الوكالة اليهوديَّة. ومن هذه القافلة، وصلت مجموعة متحمِّسة من الشباب الذين توزّعوا على خمس وعشرين مركبة، إلى أقصى نقطة جنوبًا أمكن بلوغها، وتقع على مقربة من مدينة رفح والحدود المصريَّة. هناك أنشئت نيريم فوق منطقة تُدعى دانغور، على اسم ثريّ يهوديّ مصريّ، كان قد اقتنى بعض الأراضي في ذلك الجزء من النقب في نهاية الثلاثينيَّات.

«وقد انعكست المعنويَّات العالية وروح الشباب لأعضاء المجموعة المؤسِّسة لنيريم بشكل خاصّ أثناء استعداداتهم للحرب، التي ما انفكّت احتمالات نشوبها تزداد يومًا بعد يوم آنذاك. فبينما راحوا يحفرون الخنادق ويمارسون التدريبات العسكريَّة ويجهِّزون الملاجئ بالعيادات ويتدرّبون على تقديم الإسعاف الأوَّلي للجرحى خلال النهار، انصرفوا في المساء ينشدون الأغاني برفقة الأكورديون، ويقرأون معًا مَقاطِع من كُتَيِّب البالماح العسكريّ. كانت قد سادت نيريم عمومًا أجواءٌ اجتماعيَّة وثقافيَّة نشطة حتى عشيَّة الحرب، مع أنَّ أعضاءها باتوا على علم تامّ بأنَّ الجيش المصريّ يحشد قوَّاته قرب الحدود، وأنَّهم قد يتعرَّضون لهجوم كبير، وهو ما حدث بالفعل. فبعد إعلان تأسيس دولة إسرائيل في ١٤ أيَّار من العام ١٩٤٨، كانت نيريم أوَّل مستوطنة تهاجمها قوَّات الجيش المصريّ، حيث تعرّضت لقصف عنيف من قبل مدفعيَّته، تمّ إثره تدمير جميع المباني فيها ومقتل ثمانية من مؤسِّسيها، بالإضافة إلى جرح عدَّة آخرين. إلَّا أنَّ باقي أعضاء المجموعة استمرّوا يرابطون في الخنادق، محاولين صدّ الهجوم بالبنادق وبأسلحة الرشَّاش، لا غير. وعلى الرَّغم من التفوُّق العسكريّ الكبير للقوَّات المصريَّة، أكان ذلك بالرجال أم بالعتاد، مقارنة مع أعضاء المستوطنة، تكبَّد الجيش المصري خسائر فادحة، اضطرّ إثرها للتراجع عن هجومه على نيريم، تاركًا إيَّاها وشأنها مواصلاً مسيره نحو الشمال.

«ويُحيل الكثيرون معجزة نجاح نيريم، بأعضائها التسعة والأربعين المسلّحين بأسلحة خفيفة، بصدِّ جيش نظاميّ يتمتّع بعتاد كامل، ويبلغ عدد المقاتلين فيه ما يقارب الألف، إلى روح العزيمة والتصميم التي تحلّت بها المجموعة، واستمرار أفرادها بالتحرُّك والاتِّصال بين نقاط المرابَطة المختلفة في المستوطنة، ما جعل الجيش المصريّ يُدرك أنَّهم لن يستسلموا، فقرّر، تجنُّبًا لإضاعة الوقت أكثر، عدم المكوث هناك والاستمرار بالزحف إلى الأمام.

«بعد هذا الهجوم، وفيما دام القصف اليوميّ العنيف في أماكن أخرى، استمرّت الحياة في نيريم تحت الأرض في الخنادق والملاجئ. وتركتْ هذه التجربة، وبخاصَّة مقتل ثمانية من مؤسِّسيها الشباب الذين كان بعضهم من أسرٍ نجا

أعضاؤها من محرقة اليهود في أوروبا، أثرها العميق على طابع نيريم، وتتلخّص بعبارة رمزيَّة كان قد خطّها أعضاء المستوطنة على قطعة قماش علّقوها على أحد الجدران عشيَّة الحرب خلال احتفالهم بيوم العمَّال في الأوَّل من أيَّار. وقد بقيت هذه العبارة، والجدار الذي عُلِّقَت فوقه سالمين بعد الهجوم، وما زال يُحْتَفى بها هنا حتى يومنا هذا».

ثم بانتهاء حديثه، يدفع إليّ بصورة ذلك الجدار الذي بدا قائمًا وحده بين الركام، يعلوه شريط أبيض عريض، مخطوط عليه بالعبريَّة عبارة ترجمها لي: «ليس المدفع الذي سينتصر، إنَّما الإنسان». انتشرت على الطاولة أيضًا صور لقافلة مركبات عالقة في الرمل، وللمنطقة قبل إنشاء المستوطنة، وللأعضاء المؤسِّسين الذين ارتدوا ملابس قصيرة أشبه بالزيّ، لونها رماديّ، ثم المراحل المختلفة لبناء المستوطنة، وشملت بضع سقائف، إحداها قاعة طعام كبيرة. هنالك كذلك صور لعدد من أعضاء المستوطنة يجلسون مع بعض سكَّان المنطقة من البدو ويتحدَّثون إليهم، أو ينظرون معًا إلى الكاميرا ويبتسمون. أسأله حول العلاقات بين السكَّان الفلسطينيِّين والمهاجرين اليهود في تلك الفترة. ممتازة، يردّ، فقد نصب أعضاء المستوطنة خيمة ضيافة لاستقبال بدو المنطقة، الذين حضروا لزيارتهم ولشرب الشاي بالنعناع معًا، وبعد فترة قصيرة، نشأت صداقة حميمة وثِقَة شديدة بين الطرفين، أودع البدو إثرها سيوفهم مع شبيبة نيريم. لكنَّ العلاقات قُطِعَت مع نشوب الحرب. لماذا؟ هل كانت هنالك ثمَّة مواجهات أو حوادث معيَّنة أثناء الحرب، أو حتى بعدها، أدّت إلى ذلك؟ أسأله. كلّا، يُجيب. لكنَّ، يضيف، هذه هي الحروب، تقطع العلاقات حتى بين أعضاء الأسرة الواحدة أحيانًا. «وبعد الحرب؟» «أحيانًا قليلة حدثت بعض المناوشات بين أعضاء المستوطنة وبين من بقي في المنطقة من عرب، والذين تقوم قطعان ماشيتهم من وقت إلى آخر بالتهام المزروعات في الأراضي التابعة للمستوطنة». «هل وصل الأمر يومًا ما إلى حدِّ مقتل أحدهم، رجل أو امرأة، من هذا الطرف أو ذاك؟» يردّ أنَّه لا يعرف عن مثل هذه الحوادث. ثم بعد لحظات من الصمت، يضيف أنَّ حادثة القتل الوحيدة التي صادفها، كانت أثناء تطوّعه في وحدة عسكريَّة تشكّلت بعد نهاية الحرب وكانت مهمَّتها الرئيسيَّة البحث عن متسلِّلين في المنطقة. «ما هي هذه الحادثة؟» أسألُ محاولة منع دقَّات قلبي من خنق صوتي. يردّ أنَّه ذات يوم، خلال إحدى جولاتهم، وجدوا جثَّة فتاة بدويَّة مرميَّة في بئر قريبة، ثم شرح لي أنَّ العرب حين يشُكّون في تصرُّف فتاة، يقتلونها ثم يرمون بجثَّتها في بئر. وكم يؤسفه مثل هذا الأمر، يعلِّق، وأنَّ مثل هذه العادات موجودة عندهم.

«بعد حرب الاستقلال،» يختتم سرده، «تّم التوصّل إلى قرار يفي بنقل المستوطنة إلى موقعها الحالي الذي يبعد حوالى خمسة وعشرين كيلومترًا شمالاً عن موقعها الأصلي». «لماذا؟» «أوَّلاً لأنَّ هذه المنطقة أشدّ أمنًا، وثانيًا لأنَّ نسبة هطول الأمطار السنويَّة هنا أعلى بكثير من تلك التي في الموقع السابق».

في نهاية الزيارة، يمنحني كتيِّبًا فيه معلومات كثيرة حول المستوطنة وتاريخها. أشكره، ثم أتَّجه إلى السيَّارة التي تقف في الخارج، تنتظرني بصبر ووفاء. وحين

أجلس خلف المقود وأباشر بتقليب الكتَيِّب، أكتشف أنّ غالبيَّة المعلومات التي جَمَعْتُها للتوّ هي المعلومات ذاتها الواردة في الكُتَيِّب، بل وهنالك موقع إلكترونيّ للمستوطنة يمكن للراغبين في الحصول على معلومات إضافيَّة، الاطِّلاع عليه. ليس هذا فقط موقع الجريمة، بل إنَّ كلّ تلك المعلومات التي حصلتُ عليها جرّاء رحلتي المضنية هذه، أمكنني حيازتها، بينما أنا جالسة إلى طاولتي في بيتي أمام النافذة الكبيرة.

على الأقلّ، يحوي الكتيِّب خريطة صغيرة يظهر فيها موقع المستوطنة القديم الذي وِفْقَ ما اكتشفتُ للتوّ، وبحسب الكُتَيِّب أيضًا، اسمه الحالي ليس نيريم، إنما دانغور نسبة إلى اسم المنطقة قبل إنشاء المستوطنة فوقها. أدير محرِّك السيَّارة وأتّجه داخلها نحو البوَّابة الرئيسيَّة، التي يكون الحارس جالسًا وأخيرًا في مكانه قربها، فيفتحها عِوضًا عنِّي لأنطلق فوق الشارع الأسود الذي يقودني بين تلال صفراء ساكنة ترتعش بعَصَبِيّة تحت سطوة السراب. ومع أنّ الوقت لا يزال عصرًا، لا ألمح أيّ سيَّارات فوق الشوارع التي أسلكها، ولا حتى كائنًا فوق التلال التي تنبسط على جانبيها. هنالك فقط بعض الأشجار، حيث أعبر من حين إلى آخر بكرم موز أو مانجو أو أفوكادو. لكنْ كلّما تقدَّمت جنوبًا، اشتدّ الانطباع بأنَّ المنطقة مهجورة بالكامل، إلى أن أصل نقطة مرادي وأخيرًا. إنَّها إلى يساري، وإلى يميني معسكر للجيش. لم يغادروا المكان إذًا. أركن السيَّارة على طرف الشارع قبل المعسكر بقليل، ثم أنزل منها. الطقس لا يزال شديد الحرارة، والشمس قويَّة. أمشي فوق الإسفلت الذي تبعثرَتْ على حافَّتيه عشرات الصفحات الممزَّقة من مجلّات إباحيَّة، بمحاذاة سياج المعسكر الذي تبدو قمم خيم عديدة خلفه، دون أن أبصر أيّ جنديّ. أتلكّأ قليلاً مترددِّة في العبور إلى الجهة الأخرى. ثم بعد لحظات، أقطع الشارع وأتّجه إليه مباشرة، موقع الجريمة، دون التريّث أكثر. المكان يبدو أشبه بمنتزه صغير، أرضيَّته رمليَّة غير مستوية، تنتشر فوقها بعض أشجار الكافور والمقاعد الخشبيَّة المخصَّصة للمتنزِّهين، وفي نهايته من الجهة اليسرى، ينتصب مبنى إسمنتيّ، مكتوب فوقه بالعبريَّة العبارة ذاتها التي رأيتها من قبل في متحف نيريم في إحدى الصور، وترجمتها: «ليس المدفع الذي سينتصر، إنَّما الإنسان». أدور في أنحاء المنتزه، فوق الرمل. الآن أصبحت أشجار الكافور إلى يميني، وأمامي مباشرة المبنى الإسمنتيّ، فأتَّجهُ إليه، ثم أصعد درجًا يوصلني إلى سطحه، لينفسح أمامي مشهد شاسع لسهول رمليَّة تراودها من حين إلى آخر حقول باهتة الخضرة، فمساحات مزروعة بالأشجار، ثم جدار، تليه صفوف بيوت رماديَّة وبيضاء تتخلّلها خضرة بعض الأشجار، جعلت خطّ الأفق يتَلَوّى إثرها باضطراب. إنَّها رفح، التي ستبتلع الشمس قريبًا. إلى جهة اليمين، تمتدّ، إضافة إلى هضاب الرمال، المساحات المزروعة بأشجار الموز والمانجو والأفوكادو التي عبرتُ بها بالسيَّارة قبل قليل. أعود أتأمّل الموقع إلى جهة اليسار، والذي سَتَرتْ أشجار الكافور معظم مساحته، مُخفيَّة مجمل تفاصيله. ثم أرفع عينيّ، بعد تردّد، باتِّجاه المعسكر. لا أرصد أيّ حركة داخله. خِيَمُه ساكنة، وكذلك المركبات العسكريَّة المنتشرة في أنحائه. أدير بصري بحذر نحو الفتحات المعتمة في أبراج المراقبة، والتي لا تُمَكِّنني من معرفة إن كان هنالك جنود في الداخل، يرقبونني الآن، أم لا. أخيرًا، أترك السطح وأهبط

الدرج ثانية، ليقودني بين طيَّات المبنى التي يفصل عُلوُّها الشاهق المرءَ عن محيطه، بحيث لا يعود من الممكن رؤية أيّ شيء عدا عن الإسمنت في كلِّ صوب. وأكاد أختنق، فأسرِّع من خطواتي حتى تطأ قدماي الرمل من جديد. وهناك، أعود أدور في المكان بتؤدة، بحثًا عن أثر ما لسقائف أو لخنادق. الآثار القليلة الباقية فيه، وتشير إلى وجود مستوطنة أو معسكر ما في الماضي، هي عبارة عن خطّ خندق صغير، تبدو أكياس الرمل التي سندت جدرانه حديثة العهد، لا اهتراء ولو ضئيلاً فيها. ثم ألمح فوق الرمل آثار خطى لبشر. لكنَّها ليست حادَّة؛ خطوطها لم تعد دقيقة. قد تعود إلى ما قبل أيَّام عدَّة. عدا ذلك، لا شيء على الإطلاق. لا يمكن للمرء أن يلمح فوق الرمل أيّ تفصيل آخر، ولو حتى قطعة صغيرة من الزبالة. بل إنَّ أكياس القمامة المعلّقة في حلقات حديديَّة نُصِبَتْ بجانب المقاعد الخشبيَّة، كانت خاوية تمامًا، والبلاستيك الذي صُنِعت منه لا يزال يلتصق بعضه ببعض. ومع أنّني لا أجد أيّ تفصيل، لا رئيسيّ ولا ثانويّ، يشي بالجريمة التي حدثت فوقه في ما سيصادف بعد ربع قرن بالضبط يوم مولدي، أواصل دوراني في المنتزه. لاحقًا ومع اقتراب الشمس من أسطح البيوت في رفح، أجتازُ أرضه، ثم أقطع الشارع باتِّجاه السيَّارة، أستقلُّها، وأغادر.

أستمرّ بالتجوال بين التلال الرمليَّة الواطئة المرشوم بعضها بالنباتات وبعضها بالأشجار بلا وجهة واضحة، لكنْ دون أن أبتعد كثيرًا عن الموقع. وإذ أدرك أنَّني في نهاية المطاف أجوب في حلقات، ولا جدوى تُرجى من تجوابي هذا، أوقف السيَّارة بجانب الطريق، أترجَّل منها وأدخل أحد الكروم. فوق الرمل، تستلقي خراطيم مياه، تمتدّ بترتيب بين الشجر قبل أن تدور في حلقات متساوية حول جذوعه. أبدأ بالمسير بين سروب الأشجار، أوَّلها يتكوّن من أشجار عالية تبدو أوراقها شديدة الخضرة، بالرَّغم من طبقة الغبار الخفيفة التي غطّتها، ويتدلّى منها ثمر الأفوكادو. أمدُّ يدي نحو إحدى تلك الثِمار، ضاغطة بأصابعي فوق جلدها الخشن، ثم أواصل مسيري نحو سروب الأشجار المنخفضة الواقعة خلفها. إنَّها أشجار المانجو. تتحسَّس يدي جلد ثمرها الناعم، لكنْ الأشدّ قسوة من ثمر الأفوكادو. أمشي مكملة طريقي باتِّجاه كرم أشجار الموز خلفها، حتى أصل نهايته، ليستقبلني ضوء آخِر النهار الذي راح يفيض من بين الأوراق الضخمة. وبعد قليل من الطواف بينها، أتهالك في مكاني. ثم أدور بجسمي لأستلقي على ظهري، معلِّقة عينيّ بزرقة السماء الباهتة الكئيبة، فيما ضوء ما قبل المغيب الواهن، الذي تسلّل عبر أوراق الموز، يكسوني. أبقى مستلقية فوق الرمل، تاركة الشعور بالعجز يقودني إلى إحساس عظيم بالوحدة. عبثًا أنا هنا. إنّني لا أجد بالمرَّة ما أبحث عنه، ورحلتي هذه إلى الآن لم تزِدْ ولو قليلاً من معرفتي السابقة حول الحادثة. وبالتدريج، يبدأ الإحساس بالوحدة يتحوّل إلى إحساس بالقلق، حين يبدأ ضوء الشمس بالتلاشي ويوشك المساء أن يحلّ. عليّ أن أنهض وأعود إلى السيَّارة. أدفع بجسمي ناهضة، وأبدأ بالمسير بين الأشجار التي تبدو على حين غرَّة لانهائيَّة ولا مخرج منها، فأبدأ بالركض بأقصى سرعة ممكنة حتى أصل السيَّارة، أفتح بابها وأتهاوى فوق المقعد خلف المقوَد. عليّ مغادرة المنطقة في الحال. أتناول الخريطة الإسرائيليَّة الملقاة بقربي، لأدرس مسار العودة إلى رام الله. شارع رقم ٢٣٢ حتى

شارع رقم ٣٤، والسلوك فيه إلى اليسار حتى الطريق السريعة رقم ٤٠، ومن هناك إلى جهة اليمين، حتى أصل شارع رقم ٤٤٣، وبعدها أذكر الطريق. أُعيد الخريطة إلى المقعد الجانبي فوق الخرائط الأخرى، ثم أشغِّل محرِّك السيَّارة وأنطلق.

لكنْ، ما إن أنطلق في السيَّارة وأبتعد عن الموقع، حتى أهدأ قليلاً. في الواقع، ربَّما إن مكثتُ هنا وقتًا أطول، سأكتشف شيئًا ما، أو أجد خيطًا يقودني إلى تفاصيل جديدة تتعلّق بالحادثة، تمكِّنني من تشكيل صورةٍ ما حول ما مرّت به الفتاة. بل ويقودني وشوك الشمس على المغيب إلى التفكير في قضاء الليلة هنا. لِمَ لا؟ السؤال هو «أين؟»، وهو سؤال سأوجِّهه إلى أوَّل شخص أصادفه. فأظلّ أدور في السيَّارة لبعض الوقت فوق شوارع ضيِّقة مستقيمة تتقاطع مع بعضها، لتكوِّن أُطرًا سوداء لمساحات غالبيَّتها رمليَّة صفراء، إلى أن أصل محطَّة لتعبئة الوقود بعد مغيب الشمس بقليل. أوَّلاً، أملأ خزّان السيَّارة الذي كاد يخلو من الوقود بعد تجوالي طيلة اليوم، وكانت هذه هي المرَّة الأولى في حياتي التي أفعل فيها ذلك بنفسي، وقد سكبْتُ بعض الوقود على يدي وبنطالي لشدَّة خراقتي. بعدها، أتَّجه إلى الشخص المسؤول عن المحطَّة لدفع الحساب، تسبقني إليه رائحة الوقود. إنَّه شابّ لطيف، ومن الطبيعيّ أنَّه لا يَعْبَأ برائحة الوقود المنبعثة منِّي، كونه يمضي غالبيَّة وقته هنا. أسأله عن مكان قريب يمكنني المبيت فيه، فينصحني بالذهاب إلى مستوطنة نيريم؛ هنالك غرف يقوم بعض السكَّان بتأجيرها للسيّاح من أمثالي، فَقَدْ قدَّمتُ له نفسي كسائحة. إذن نيريم ثانية. وفق الخريطة، هي لا تبعد كثيرًا عن موقعي الحالي، وطريق الوصول إليها سهلة. وأتوجَّه نحوها مباشرة. حين أبلغ حاجز البوَّابة عند مدخلها بعد وقت قصير، لا أجد الحارس في مكانه، فأترجَّل من السيَّارة، أفتح البوَّابة بنفسي، أعود إلى السيَّارة، أقودها عبر البوَّابة، أنزل، أغلق البوَّابة، ثم أرجع إلى السيَّارة وأنطلق نحو قلب المستوطنة. ثم لحظة أعبر بالسقائف التي اعتقدْتُها في البداية موقع الجريمة، أنظر إليها بغير مبالاة، مبدِّدة كلِّيّة إحساسي السابق بالقنوط فالاضطراب عقب رؤيتها في المرَّة الأولى. أواصل مسيري فوق شوارع المستوطنة التي أنتبه الآن فقط إلى أنَّ أسماءها هي على أسماء أزهار مختلفة. أعرِّج إلى شارع الياسمين حالما ألمح شابًّا يقف أمام سيَّارة، يختفي داخل صندوقها الخلفيّ الجزءُ الأعلى من جسم رجل آخر. أهبط من السيَّارة وأحييهما، ثم أسألهما عن مكان يمكنني المبيت فيه هذه الليلة. وبينما يعود الرجل الثاني إلى الانشغال بمحتوى صندوق السيَّارة، ليختفي نصفه الأعلى مجدَّدا داخله بعد أن رفع رأسه لرؤية من القادم، يردّ الشابّ بأنَّه في العادة يقوم بتأجير مثل هذه الغرف بنفسه، غير أنَّه للأسف لم تبقَ لديه غرف شاغرة لهذه الليلة. أسأله بشيء من الخيبة، إن كان يعرف عن نُزُل آخر يمكنه أن يدلّني إليه، فينصحني بالرجوع إلى الشارع الذي جئت منه والتوجُّه قبل نهايته نحو اليسار، إلى شارع النرجس. هناك قد أجد غرفة شاغرة في بيت ضيافة يقع في أوَّل الشارع إلى جهة اليسار. ثم يستدرك قائلاً، «لحظة»، ويتناول من حقيبة جلديَّة صغيرة معلّقة في حزامه هاتفًا نقَّالا، ويبدأ بالاتّصال بأحدهم. إنَّه يتحدّث مع صاحب النزل في شارع النرجس، ولديه في الواقع آخِر غرفة شاغرة «لحسن حظّك». أشكره على لطفه الشديد قبل أن أتّجه إلى هناك. وكانت قد بدأت تعتّم. عندما أصل النزل في شارع النرجس، أجد صاحبه

بانتظاري على الرصيف. ومع أنّه لا يسألني من أكون، أقدِّم إليه نفسي وسبب وجودي هنا وفقًا لما قلت لمسؤول المتحف والأرشيف في نيريم، كي أتفادى إثارة شكوك أيّ أحد حولي. ويقودني صاحب النزل، عبر حديقة كبيرة، إلى سقيفة في الجهة المقابلة لبيته. أجد السقيفة نظيفة ومرتَّبة. أدفع له مقدَّمًا أجرة مبيتي لتلك الليلة التي بدأت على التوّ، إذ ما أن نعود معًا إلى باب المدخل، حتى تستقبلنا ظلمة حالكة. يتركني صاحب النزل متَّجهًا إلى بيته، بينما أكمل أنا طريقي إلى السيَّارة، أتناول منها حقيبتي والخرائط، أقفلها ثم أرجع إلى السقيفة، أضع الحقيبة على طاولة المطبخ، ثم ألحظ الثلَّاجة وأتذكَّر أنَّ آخِر شيء أكلته كان العلكة. بل إنّني لم أتناول أيّ شيء منذ الصباح عدا العلكة، فأتَّجه إلى الثلَّاجة وأفتحها. هنالك كعكة وعلبتا لبن داخلها. آكل قليلاً من الكعكة، إذ إنّني لا أعرف إن كان مسموحًا لي بالأكل منها أم لا. ربَّما يكون النزلاء السابقون قد تركوها خلفهم، فآكل منها قليلاً ثانية، ثم أخرج. أطفئ الضوء الذي أنار مدخل السقيفة، وأتريّث بضع لحظات، حتى أتمكَّن من رؤية الأرجوحة التي لمحتُها لدى وصولي ممدودة بين نخلتين قزمتين. ثم أتوجّه إليها داخل الليل المخمليّ وأستلقي فوقها، حيث أنصرف أراقب الضوء الخافت للنجوم البعيدة المنثورة في جميع أنحاء السماء. ولا أتحرَّك من موضعي لوقت طويل، لدرجة أنَّه بدأت تتشكَّل فوقي طبقة خفيفة من الندى، ذلك إلى أن ألمح فجأة كتلة سوداء داكنة تمشي فوق العشب وتتّجه نحوي، ثم تتوقّف أمام الأرجوحة. إنَّه كلب. وفي الحال، يروح وجود الكلب هذا يدفع الخوف إلى نفسي. فأحاول طرده مرَّة تلو الأخرى، إلّا أنَّه يبقى واقفًا في مكانه لا يتزحزح، فيما الفزع يشتدّ بي، ما يرغمني في النهاية على النزول من الأرجوحة والعودة إلى سقيفتي. لكنْ، وقبل أن أدخلها، أنظر إلى الوراء نحو الكلب، لكنّني لا أجد له أثرًا بالمرَّة. كان قد اختفى كلِّيَّةً.

حال دخولي السقيفة، وبالرَّغم من تعبي الشديد وعدم رغبتي البتَّة في الاستحمام، تدفعني رائحة الوقود التي تلتصق بي إلى الحمَّام. أدخل حوض الاستحمام، أغلق الستارة، ثم أفتح الحنفيَّة، ويندفع تيّار المياه الدافئة فوق جسمي بقوَّة وغزارة، ما يذكّرني بأنّني لست في رام الله، كما أنّني لست بحاجة لأن أستحمّ هذه المرّة برفقة الإحساس بالقلق، بأنَّه إن لم أغلق الحنفيَّة بسرعة فسأنهي كلّ ما في الخزّان من ماء دون أن أترك شيئًا للجيران. ثم أغلِّف جسمي بطبقة كثيفة من رغوة الصابون، محاولة إزالة ما تكدّس فوقه من عرق وغبار ورائحة وقود. بعدها، أعود وأفتح الحنفيَّة، حيث أترك المياه الغزيرة تنساب فوق جسمي لتنظِّفه تمامًا، حتى من ذكرى تيّار المياه الشحيح في حمّام بيتي في رام الله، ما يجعل القرار بإغلاق الحنفيَّة والخروج من الحمّام صعبًا أيضًا، إلى أن بات من شبه المؤكَّد أنَّ ما استهلكتُ من مياه خلال حمّامي هذا يساوي ما أستهلكه في العادة خلال أسبوع كامل من الاستحمام اليوميّ في بيتي. عندها، أسارع إلى إغلاق الحنفيَّة. ثم أباشر بتنشيف جسمي قبل أن ألفّه بالمنشفة، وأخرج من الحمّام أخيرًا حاملة ملابسي التي لا تزال تنبعث منها رائحة الوقود ورائحة عرق خفيفة. أتّجه إلى طاولة المطبخ، أضع القميص على حافَّة أحد الكراسي والبنطال على آخَر لتَهْوِيَتِهما، آمِلةً أن تزول عنهما تلك الروائح، ثم أدفع بحذائي تحت الطاولة. في طريقي إلى السرير، أتوقّف عند

رفّ صغير اصطفتْ فوقه مجموعة ضئيلة من الكتب، ضمّت بينها دلائل سياحيَّة للمنطقة، وكتبًا حول الطهي وحول الفنّ عامَّة. أتناول أحد كتب الفنّ، وأتَّجه إلى غرفة النوم. أدخل السرير الذي يبشِّر فراشه المستقيم بأنَّ إحساسًا بالراحة سيستولي عليّ بعد قليل، ثم أفتح الكتاب الكبير والثقيل الذي حملْتُه معي. فوق إحدى صفحاته الأولى، تظهر لوحة تصوّر رجلاً وجهه محمرّ قليلاً، يرتدي بذلة سوداء وقميصًا أبيض، يجلس بهدوء على كرسيّ. إنَّه كتاب حول حركة الفنّ التعبيريَّة، التي كما يأتي فيه، ملطّخة بتجربة القتل والخراب والدمار التي عاشها الفنَّانون الألمان إبّان الحرب العالميَّة الأولى، وأدَّت إلى تحوّلهم من أسلوب الرسم الكلاسيكيّ إلى أسلوب اتّجه نحو تشويه حادّ لشكل الإنسان ولمحيطه. الخطوط التي تشكّل الرسومات العديدة في الكتاب فعلاً حادَّة، مضطربة، ومشوَّهة. أستمرُّ بتقليب صفحاته، حتى أصل مقتطفات من بعض الرسائل التي كتبها أحد هؤلاء الفنَّانين لزوجته. في رسالة يعود تاريخها إلى ٨/٦/١٩١٥، يأتي: «بالأمس مررنا بمقبرة دُمِّرَت تمامًا جرّاء القصف، حيث فُجِّرَت القبور وظهرت التوابيت فيها بأكثر الوضعيَّات غير المريحة. لقد عرَّضت القنابل ساكني هذه القبور لضوء النهار بأقلّ الأشكال احتفاليَّة، كما وأمكن رؤية عظام وشعر وبعض ملابس الجثث في التوابيت المفتوحة على مصاريعها». ثم في رسالة أخرى من تاريخ ٢١/٥/١٩١٥، يأتي: «تمتدّ الخنادق كجروح في خطوط ملتوية، بينما وجوه بيضاء تطلّ من المخابئ المظلمة. ما زال كثير من الرجال يجهّزون مواقعهم التي أطلّتْ من بينها، من كلّ حدب وصوب، القبور، في حين تجمّعت الجثث حولهم وهم جالسون قرب مخابئهم وبين أكياس الرمل. يبدو الأمر ضربًا من الخيال؛ كان هنالك رجل يقلي البطاطا فوق قَبْر قرب مخبئه. الحياة هنا تحوّلتْ إلى مفارقة مضحكة». فوق صفحة أخرى، أُبْصِرُ لَوحة تظهر فيها فتاة عارية مستلقية على بطنها فوق الرمل، كما لو أنّها سقطت فوقه، جسمها بلون صفاره، وشعرها قصير أشعث أسود. أغلق الكتاب، أضعه جانبًا، ثم أُطفئ المصباح وأغفو، إلى أن يعيدني إلى الصحو عند ساعات ما قبل الفجر، صوتُ انفجار ثقيل، يتبعه بعد لحظات آخَر، ثم آخَر، وآخَر. إنّني لا أحلم. أصيخ بسمعي جيِّدًا إلى أصوات القذائف. ويروح ثقلها يترجم لي بُعْدي عن المكان الذي يجري قصفه. إنَّه بعيد، خلف الجدار. في غزَّة، أو ربَّما رفح. وإنّ الفرق كبير بين صوت الانفجار حين يكون المرء على مَبْعَدة من المكان الذي يجري قصفه، أو حين يكون على مقربة منه. فدَوْيُّ هذا القصف ليس قويًّا بالمرَّة ولا صوته مزعجًا، إنَّما هو عميق ثقيل، أشبه بصوت دقٍّ متباطئ على طبل ضخم. كذلك الانفجارات التي تنجم عنه، لا تهزّ المبنى الذي أتواجد داخله، مع أنَّه خشبيّ خفيف، ولا تحطِّم نوافذه الزجاجيَّة مع أنَّها مغلقة. ثم حين أنهض من فراشي وأفتحها، لا تغمر الغرفةَ سحبُ غبار كثيف مقزِّز الملمس، إنَّما يتسلّل هواء الفجر الطريّ الناعم إليها. أواصل الإنصات بتيقُّظ إلى أصوات الانفجارات المتكرِّرة، التي تقودني إلى إحساس غامض بالقرب من غزَّة، يتخلّله التوق لسماع صوت القصف عن كثب، وتحسّس ذرَّات غبار المباني التي يجري تفجيرها، وراح غيابها الآن يشعرني بمدى بُعدي السحيق عن كلّ ما هو معهود، بل واستحالة عودتي إليه.

لكنْ قبل أن أدع الاضطراب يستفرد بي كليَّة، ويتسرَّب الإحساس بالهلع والقلق إليّ من جديد، أرجع إلى السرير وأغفو ثانية.

في الصباح الباكر، أستيقظ، أضع ملابسي التي خفّت رائحة العرق المنبعثة منها قليلاً، لكن ليس رائحة الوقود، وأتّجه إلى السيَّارة، أدخُلها، ثم أطرق الباب خلفي، قبل أن أشغِّل المحرِّك وأترك المكان دون أن ألمح صاحب النزل. أغادِر باتِّجاه موقع الجريمة، فعدا عنه، لا أعرف أين يمكنني التوجّه. وقد بدت الطريق إليه هذه المرَّة أقصر بكثير ممَّا كانت عليه في المرَّة الأولى، في حين راحت ترشدني إليه خطوط التلال المنحنية، ثم كروم الأفوكادو والمانجو والموز، لا الخرائط. وعندما أبلغه، أجده كما تركته بالأمس، ربَّما أقلّ حَرًّا، فلا يزال النهار في بدايته، كما أنَّ طبقة خفيفة من الغيوم راحت تستر أشعَّة الشمس المُشرِقة. أتّجه نحو المبنى الإسمنتيّ الذي يستقبلني ثانية بعبارة: «ليس المدفع الذي سينتصر، إنَّما الإنسان»، ثم أصعد درجه. من سطحه، تلوح رفح ثانية وهي تحدّ الأفق، يتصاعد منها هذا الصباح بهدوء دخانُ القصف، قبل أن يتلاشى داخل زرقة السماء الباهتة، التي كادت أن تتماهى مع رماديَّة الجدار الذي أخفى غالبيَّة بيوت المدينة خلفه. هنالك بعض من الزملاء في عملي الجديد، وهم لطفاء جدًّا، قادمون من رفح ومن مناطق أخرى في غزَّة. فأدع عينيّ تمتصَّان ما يظهر أمامهما من مشهد لأجل هؤلاء الزملاء، الذين ما برحوا منذ أعوام عديدة بانتظار تصريحٍ ما يجيز لهم زيارته.

أنزل درج المبنى، ثم أتّجه إلى تلَّة رمليَّة قريبة وأجلس فوقها في ظلال إحدى أشجار الكافور. أتناول من حقيبتي علبة اللبن التي حملتها معي من الثلَّاجة في سقيفتي في المستوطنة، كما ملعقة صغيرة أخذتها من هناك أيضًا، ثم أباشر بأكل اللبن الذي يروح بياضه يلسع عينيّ من حين إلى آخر، فيما هما تجولان المكان بتؤدة، متنقِّلتان بين تفاصيله الرتيبة التي شَهَدْتُها في الأمس. جذوع الأشجار المندفعة من داخل الرمال، والخندق المرمّم الصغير، العبارة المخطوطة على المبنى الإسمنتيّ، والمعسكر على الجانب الآخر من الشارع. بعد انتهائي من تناول اللبن، أدفع بجسمي، مستعينة بكفِّي كي أقف، عندها ألحظ بغتة ما يبدو كآثار حادَّة لأطراف كلب على الرمل على مقربة منِّي، ثم أنتبه إلى أنَّها تنتشر في كلِّ صوب. عندها يعود الخوف ليستيقظ فيّ من جديد. مع ذلك، أحاول المشي بهدوء نحو السيَّارة، فربَّما الجنود في أبراج المراقبة في المعسكر يراقبونني الآن. وهكذا، أتلكَّأ قدر الإمكان في مسيري، جائلة ببصري نحو جذوع الأشجار وأوراقها شبه الجافَّة، ومقاعد المتنزِّهين الخشبيَّة. فالرمال المربوصة جرّاء المسير حول الخندق. إلَّا أنَّ ساقيّ لا تزالان تريدان الإسراع بي إلى السيَّارة ومغادرة المكان في الحال، فأتذكّر العلكة. أدفع يدي داخل حقيبتي وأتناول إحدى علبتيْ العلكة، أُفْرِغ قطعتين من داخلها في فمي، ثم أدفعها إلى جيب بنطالي. أباشر بمضغ العلكة في فمي، قبل أن أرفع علبة اللبن التي ما زلت أحملها في يدي اليسرى أمام عينيّ، وأقرأ ما كُتِبَ عليها، حتى أصل السيَّارة. أفتح الباب، أضع الحقيبة على المقعد الأماميّ بجانبي، وعلبة اللبن الفارغة خلف عصا الفرامل، ثم أشغِّل المحرِّك بهدوء، وأنطلق إلى الأمام بمحاذاة سياج المعسكر الذي حاولت تجنُّب النظر إليه قدر الإمكان، وبدل

ذلك، تأمّل محيط المنتزه. أقود السيَّارة في الاتَجاه المعاكس للذي قدمتَ منه، حتى أصل نهاية الشارع بعد بضعة أمتار، وهو يتفرّع بدوره في اتِّجاهين. في الشارع المؤدِّي إلى جهة اليمين ويقود إلى رفح، اصطفّت مركبات ومدرّعات عسكريَّة عديدة، وقف حولها عشرات الجنود، راح بعضهم يتأرجح يمنة ويسرة فيما هم يتبادلون أطراف الحديث. يبدو أنَّهم على وشك الانطلاق في عمليَّة اجتياح لرفح. أدور ناحية اليسار، فوق الشارع الذي يصرفني بعيدًا عن كلّ منطقة غزَّة وما سيحلّ بها. من هناك، أتَّجه شرقًا، مستمرَّة في مسيري في السيَّارة، أدور كذبابة مضطربة على غير هدى بين التلال والمساحات الرمليَّة التي اخترقتْها من حين إلى آخر صفوف من أشجار السرو أو الكافور. ويواصل الوقت مروره دون أن أستهدي إلى قرار حول ما يجب أن أفعل. أخيرًا، أوقف السيَّارة إلى حافَّة الطريق، أتناول الخرائط من المقعد الخلفيّ، وأفتح الخريطة الإسرائيليَّة بحثًا عن رقم الشارع الذي أنا فيه. لقد وصلتُ حتى هنا. ثم يتابع بصري مسير الشارع شرقًا، حيث ألحظ إلى جهته الشماليَّة أسماءَ عربيَّة لبعض البلدات، تتركّز جميعها في منطقة تؤطِّرها بضعة شوارع في شكل أقرب إلى المثلّث. خارج هذا المثلّث، تبدو غالبيَّة مساحة جنوب النقب شاغرة، عدا عن بضع نقاط مخصّصة إمَّا كمناطق للتدريب العسكريّ، أو للمستوطنات، أو لمزارع إسرائيليَّة فرديَّة. أعود لأدقِّق في منطقة المثلّث، وأسماء البلدات التي أقرأها لأوَّل مرَّة. بعد وقت، أضع الخريطة جانبًا فوق المقعد الأماميّ بقربي، ألتقط العلكة من فمي وأرميها في المنفضة، ثم أنطلقُ شمالاً. وتعود تدريجيًّا حركة السيَّارات فوق الشوارع بالازدياد، ما جعل المنطقة تبدو أقلّ مهجورة. كذلك، ازداد انتشار الحجارة والصخور الصغيرة ذات الظلال الحادَّة فوق الهضاب، التي تبدّلت تربتها من رمال باهتة الصفار إلى غبار أبيض. أواصل قيادتي السيَّارة فوق الشارع، إلى أن ألمحُ فجأة دربًا ترابيًّا يتفرّع إلى جهة يساره، ويبدو أنَّه يمكن للسيَّارة سلوكه، فأشغّل غمّاز اليمين على الفور، مخفِّفة من سرعتي مع اقترابي منه، وأسلكه. وقد سهّل انتشار الحصى من حركة السيَّارة فوقه، لكنْ، على الرَّغم من قيادتي الحَذِرة لها، ثارت عاليًا سحب كثيفة من الغبار، سرعان ما تحوّلتْ إلى هالة غلّفت المشهد برمّته خلفي. أمَّا قبالتي، فقد انفسح منظر غَلَبَتْه التلال الجرداء الموحشة، التي زادت شمس ما قبل الظهيرة، والحجارة الكثيرة المنتشرة فوقها، من حدّة قسوتها. وبعد لحظات، ظهرتْ قمم بضعة سقائف، أخذتْ تختفي خلف التلال، ثم تعود لتظهر من جديد على التوالي، أثناء مسيري فوق الدرب، حتى انجلَتْ تمامًا عندما بتُّ على مقربة بضعة أمتار منها. كما أنَّ كلبًا هبّ لملاقاتي، راح يركض مسرعًا نحو السيَّارة نابحًا بشراسة، وقد حاولتُ تجنّبه قدر الإمكان، كي لا أدهسه، إلَّا أنَّه لم يأبه بمحاولاتي وواصل ملاحقة السيَّارة. ثم حين أوقفتها أخذ يحوم حول مقدِّمتها، مستمِرًّا بنباحه، ما أجبرني على أن أبقى في السيَّارة بانتظار أن يهدأ ويبتعد، أو أن يظهر أحدهم مِن داخل إحدى تلك السقائف، ليخلِّصني منه. غير أنَّ شيئًا من هذا لم يحدث. وأروح أجول بنظري في أنحاء المكان بحثًا عن أحد، أتأمّل السقائف التي شغلتْه وكان بعضها مبنيًّا من القصدير، بينما أخرى من حجارة الطوب، تعلو أسقفها ألواح القصدير وأغلفة بلاستيكيَّة تفرّقتْ فوقها الصخور، على الأغلب لتثبيتها أمام وجه الريح. عدا عن هذه

السقائف، هنالك بضعة حظائر خالية من الماشية، بوّاباتها مفتوحة. المكان يبدو شبه مهجور. وإلى الآن لم يخرج أحد لملاقاتي، أو يطلّ ليتحرّى أمر هذا العواء المستمرّ وما سَبَقه من هدير سيَّارة وسحب غبار. أتناول الخريطة الإسرائيليَّة ثانية بحثًا عن إشارة ما حول هذه البلدة الصغيرة، غير أنَّني لا أجد أثرًا لها. فراغ أصفر تامّ يشغل الرقعة التي أخال أنَّ موقعها فوقها. أغلق الخريطة وأعيدها إلى المقعد بجانبي. لا بدّ أنَّ هذه إحدى قرى النقب غير المعترف بها التي يسمع المرء بها. أدير نظري نحو خزّانات المياه المنتشرة في أنحائها، ثم بعض المركبات القديمة التي توزّعت في جهاتها المختلفة، واختفت إطارات عدد منها لتحتلّ مكانها الحجارة، إضافة إلى اختفاء غالبيَّة الأبواب وعجلات القيادة والأضواء والمقاعد. لا أعرف كم من الوقت يمكنني البقاء داخل السيَّارة، التي باتت الحرارة فيها لا تُطاق. بينما الكلب ما زال يحاصرني، مع أنَّ نباحه قد هدأ قليلاً. لكنْ ما إن أحاول فتح نافذة السيَّارة كي يدخلها بعض الهواء، حتى يعود لينبح نحوي باهتياج، فأسرع لإغلاقها، مبقية على فتحة صغيرة فيها فقط، ثم أستأنف تأمُّلي لتفاصيل المكان. أعُدُّ ستّ سقائف حين ألمح فجأة ما يشبه ظلال رأس، قد يكون لفتاة، يطلّ عبر مدخل إحداها، لكنَّه يعود ويختفي في لمح البصر قبل أن أتمكّن من فتح النافذة، ودفع رأسي عبرها صائحة بصوت عالٍ «مرحبًا». لكنَّني أعود وأرفع الزجاج بسرعة، إذ إنَّ الكلب ينقضّ نابحًا باتِّجاهي بشراسة ثانية. مع ذلك، أحاول دفع صوتي قدر مستطاعي عبر الفتحة الصغيرة التي أبقيت عليها في النافذة، مكرِّرة نداءاتي صوب الفتحة المعتمة التي اختفت الظلال داخلها. لكنّها لا تردّ؛ نباح الكلب فحسب، الذي يطغى على صوت ندائي. وبعد أن أفقد الأمل من أنَّ أحدًا سيردّ عليّ، أستسلم إلى الصمت، الذي بدأ يعتليه تدريجيًّا الشكّ حول إن كنت فعلاً قد رأيت تلك الفتاة أم أنّني توهّمت رؤيتها. ثم يهدأ نباح الكلب، دون أن يفارق السيَّارة. بدل ذلك، يستلقي أمامها فوق التراب الرمليّ الشاحب. عندها أميل بحذر شديد نحو النافذة الثانية بمحاذاة المقعد بجانبي، وأفتحها ببطء، محاولة عدم إثارة انتباه الكلب قدر الإمكان، آمِلة أن يجري بعض الهواء عبرها ويخفِّف من سطوة الحرارة التي راحت تتعاظم داخل السيَّارة، إلّا أنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، ويبقى القيظ الشديد يحاصرني من كلِّ صوب. وإذ يستمرّ السكون في المكان، أغرق في مقعدي، أفكِّر في ما عساي أن أفعل. لا أدري حقًّا. بعد بضع لحظات، أعدّل من جلستي، ثم أعود أنظر باتِّجاه الكلب الذي كان ينظر باتِّجاهي أيضًا. أدور ببصري نحو فتحة السقيفة التي لمحتُ ظلال الفتاة عبرها قبل قليل، لكنَّ العتمة وحدها فقط ما زالت تطلّ منها. لا بدّ أنّني تخيّلت الفتاة. أنتقل إلى التحديق في فتحات مداخل السقائف الأخرى ونوافذها الموصدة عسى أن يطلّ عبرها أحد، قبل أن أحوِّل ناظريَّ باتِّجاه خزَّان المياه القريب من إحداها، وألمح خابية زرقاء شبه مليئة بالماء، تستلقي تحت حنفيَّته مباشرة. إذن، المكان ليس مهجورًا تمامًا. ثم أروح أنظر باتِّجاه حظائر الماشية، إلى الألواح القصديريَّة وموادّ الخردة التي بُنِيَتْ منها، فالمركبات القديمة التي انتشرت حولها وبين السقائف، والتي بدت معًا، بالرَّغم من بُعْدِ مكوِّناتها عن كلّ ما هو طبيعيّ، في وئام تامّ مع الطبيعة. أخيرًا، أمدّ يدي نحو مفتاح السيَّارة، أشغِّل المحرِّك، وأدور بها لأعود في الدرب التي جئت منها. حينها يهبّ الكلب على أطرافه نابحًا من جديد، قبل أن يلحق

بي. ألمحه في مرآة السيَّارة يركض خلفي إلى أن علتْ الفضاءَ سحبُ الغبار، حجبته وحجبتْ مشهد السقائف والتلال بأكمله عنِّي. أصل إلى الشارع الرئيسيّ، حيث أتّجه إلى جهة اليمين، نحو الشقّ الجنوب ـــــ غربي من النقب مرَّة أخرى، دون دافع واضح، كما لو أنَّني لم أعد قادرة على مغادرة المكان أكثر. أواصل مسيري في السيَّارة مجتازة التلال الجرداء التي عادت تتحوّل تربتها إلى رمليَّة باهتة الصفار، كما وأخذت حركة السيَّارات فوق الطرقات تخفّ حتى اختفت تمامًا. الحركة الوحيدة الآن باتت للسراب، الذي جعل الشوارع والتلال تتحرَّك بعصبيَّة، وتتراءى فيها أطياف، لحظة يدقِّق المرء النظر فيها تتلاشى في لمح البصر، إلى أن ألمح فجأة امرأة عجوزًا، تقف على قارعة الطريق قبل مفترق إحدى الطرقات، فأوقف السيَّارة بسرعة قريبًا منها. أفتح نافذة السيَّارة وأسألها إن كان يمكنني مساعدتها بشيء، أو إن كانت ترغب بتوصيلي إيّاها إلى مكان ما.

تصعد العجوز السيَّارة. وما إن تجلس إلى المقعد بجانبي وننطلق، حتى نلوذ كلتانا بالصمت، بصر كلّ واحدةٍ يتعلّق بجزء مختلف من المشهد المحيط بنا. أنا أنظر أمامي إلى الشارع الذي يخترق التلال المتموِّجة، وقد أخذت تتبدّل ألوانها من صُفْرة باهتة إلى بنِّيّ خفيف، بينما هي تنظر نحو جهة اليمين، كما تشي التفاتة رأسها الملفوف بعصبة سوداء بمثل سواد ثوبها. وإذ أسترق النظر إليها بين الفينة والأخرى، أرى جزءًا من وجهها الذي سطَّرته تجاعيد حادَّة، ثم كفّيها اللتين تركتهما ترتاحان في حضنها فوق ثوبها الأسود، وبدتا متماسكتين أكثر من أيِّ كفّين رأيتهما في حياتي. كانت تخطّهما عروق زرقاء أشبه بخطوط الخرائط التي رميت بها على المقعد الخلفيّ لحظة أوقفْتُ السيَّارة لآخذها معي. هي على الأرجح في السبعينيَّات من عمرها. كانت الفتاة ستكون في مثل عمرها الآن على الأغلب، لو لم تُقْتَل. ربَّما تكون هذه السيِّدة قد سمعت بالحادثة، فمثل هذه الحوادث كانت ستصل مسمع كلّ أهالي النقب، مُرهِبة إيَّاهم جميعًا، ولا يمكن لأيٍّ من سمع بها أن يكون قد نسيها. يمكنني أن أبدأ بسؤالها عن المنطقة، ومنذ متى هي تعيش هنا، ثم أنتقل تدريجيًّا إلى سؤالها حول الحادثة، وإن كانت تعرف شيئًا عنها. غير أنَّ الكلمات لا تخرج من فمي. يستمرّ الصمت بيننا، مشابهًا بامتداده صمت الطبيعة المترامية من حولنا، محكِمًا قبضته علينا إلى أن تطلب السيِّدة منِّي التوقّف فجأة، فأوقف السيَّارة وتترجّل هي منها. لكن قبل أن تفعل، تنظر إلى عينيّ مباشرة، ثم تستدير مبتعدة بهدوء باتِّجاه درب رمليّ إلى يسار الشارع، لا يمكن للمسافرين على الطرقات الإسفلتيَّة ملاحظته، أو تصوّر أنَّه قد يقود إلى مكان ما. تبدأ العجوز بالمشي فوقه حتى تختفي جميع آثارها داخل تلال الرمل، بينما أنطلق أنا داخل السيَّارة، يرافقني الإحساس بغيابها من المقعد بجانبي، ثم الندم، لأنّني لم أقوَ على سؤالها حول الحادثة. يا لخراقتي! إنَّها هي، لا متاحف الجيش أو المستوطنات وأرشيفاتهم، التي قد تملك تفاصيل ما يمكنها أن تعينني على اكتشاف الحادثة كما عاشتها الفتاة. والوصول أخيرًا إلى الحقيقة كاملة. وكلّما ازداد بعدي عنها ازداد فهمي للأمر، فندمي. بغتة، أوقف السيَّارة، وأدور بها عائدة في الاتِّجاه الذي قدمتُ منه، حتى أصل النقطة التي نزلَتْ عندها العجوز. أركن السيَّارة بمحاذاة الشارع، ثم أباشر بالبحث فوق الخرائط التي بحوزتي عن بلدة أو قرية ما إلى جهة اليسار، قد تكون

توجّهت إليها العجوز. لكن لا إشارة تَفيد بوجود أيّ تجمُّع سكنيّ هناك. فوق الخريطة الإسرائيليَّة تظهر فقط نقاط متفرِّقة فوق منطقة تقع بعيدًا خلف الشارع، تفيد بوجود منطقة تدريب عسكريّ ومجال لإطلاق النار. أنزل من السيَّارة وأجتاز الشارع باتِّجاه الدرب الرمليّ الضيِّق الذي رأيتُها تسلكه. أمشي بضع خطوات فوقه، علّني أكتشف شيئًا ما خلف التلال التي يقود إليها، لكنَّ تلالاً أخرى تلتْ تلك التلال. عندها أروح أدرس إمكانيَّة سفري بالسيَّارة فوق الدرب. يمكنني ذلك إن قدتُ السيَّارة بحذر. أعود أدراجي نحو الشارع الرئيسيّ إلى السيَّارة، ثم أتَّجه داخلها نحو الدرب الرمليّ. وتقودني هذه الدرب بين تلال رمليَّة سرعان ما تفسح عن منظر يختلف عن كلِّ ما شَهِدْتُ حتى الآن. تواصل السيَّارة مسيرها بين التلال الصفراء، إلى أن تلوح على حين غرّة في قلبها بعض أشجار الدوم والبطم ونبات القصب. لا بدَّ أنَّ هناك نبع ماء. ولا أقاوم فكرة التوجُّه إليها على الرَّغم من الإشارة التي تفيد بأنَّ هذه منطقة عسكريَّة، وكثيرًا ما يصطدم بها المرء في مناطق «ب». ثم حين أصبح على مقربة من تلك الأشجار، أوقف السيَّارة، ثم أنزل وأبدأ بالمسير نحوها. وفيما ساد سكون مطبق حارّ مِن حولي، أخذ وقع أقدامي فوق الرمل يثير فيّ الإحساس بالوجل، فحاولتُ المشي فوقه بحذر، جاعلة خطواتي عليه أشدّ ما تكون خفَّة، ما شغلني عن كلّ ما هو حولي عدا الرقعة التي أخطو فوقها. أستمرُّ بمسيري الحذِر هذا إلى أن ألحظ شيئًا مرميًّا فوق الرمل. أدنو منه قليلاً، ثم أنحني فوقه مقرِّبة بصري إليه. إنَّه غلاف رصاصة. أمدّ يدي إليه وألتقطه. أرفع الغلاف أمام وجهي لأتأمّله جيِّدًا، وعندها أرى على بعد بضعة أمتار، بين أشجار الدوم، قطيعًا من الجِمال جامدًا في مكانه باهتًا فيّ، فأجمد في مكاني بدوري. لا أدري ما الذي تفعله هذه الجِمال في حقل نيران كهذا. يشيح الجملان الواقفان إلى جهة اليمين بنظرهما عنِّي ويدوران باتِّجاه الشجيرات القريبة منهما، قافزَيْن برشاقة عمّا يبدو أنَّه منعرج في الرمل، ثم يختفيان بينها. بعدها، تبدأ الجمال الأربعة الباقية هي كذلك بالمسير بهدوء فوق الرمل الذي كتم صوتَ خطاها، لاحقة بالجملين الآخرين لتختفي خلف الأشجار ذاتها. أنهض واقفة، غلاف الرصاصة لا يزال في يدي اليمنى، ثم أستدير عائدة باتِّجاه السيَّارة، تاركة تلك الجِمال ترعى بسلام. عندها، أبصر مجموعة من الجنود يتوسّطون رحاب المشهد الشاسع، واقفين بصمت ينظرون باتِّجاهي. وفي الحال، تجتاحني موجة حرّ شديدة ويبدأ جسمي يتصبَّب عرقًا. عليّ أن أهدأ على الفور. توتُّري لن يغيِّر من مجرى الأمور. ثم في يدي غلاف رصاصة، فأفتحها ويسقط غلاف الرصاصة على الرمل بسكون. عليّ أن أعود وأواصل مشيي بثبات وبهدوء، ودون أن أعير وجودهم أيّ اهتمام، إلى السيَّارة. لكنَّ أحد الجنود يصرخ باتِّجاهي آمرًا إيَّاي بالتوقُّف مكاني، فيما يرفع آخرون أسلحتهم نحوي. وفي الحال، ينطلق صوت نبض قلبي ليدقّ في رأسي بعنف، والخدر ليمتدّ في جسمي ليشلّه. لا بدَّ أنَّهم انتبهوا إلى السيَّارة الصغيرة البيضاء التي دخلت المنطقة العسكريَّة، ولا محالة أثارت شكوكهم، وقد يكونون اتَّصلوا بالشرطة التي تملك الحقّ في الحصول على ما تشاء من معلومات من ضمنها هويّة صاحب هذه السيَّارة الصغيرة البيضاء، ليكتشفوا أنَّها تابعة لشركة تأجير سيَّارات فلسطينيَّة مقرّها في منطقة «أ»، ومستأجرة من قِبَل رجل هو أيضًا من سكّان منطقة «أ»، وليس من قبل امرأة كالتي

يصوّبون باتَجاهها الآن أسلحتهم. يجب أن أهدأ. لا بدّ أنني أغالي. أجل، كالعادة. العلكة. أين هي. عليّ أن أهدأ. أمدّ يدي، نحو جيبي لأتناول من داخله علبة العلكة.

فجأة، يغمرني ما يشبه الحريق الحادّ في يدي ثم صدري، يليه أصوات إطلاق نار بعيدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

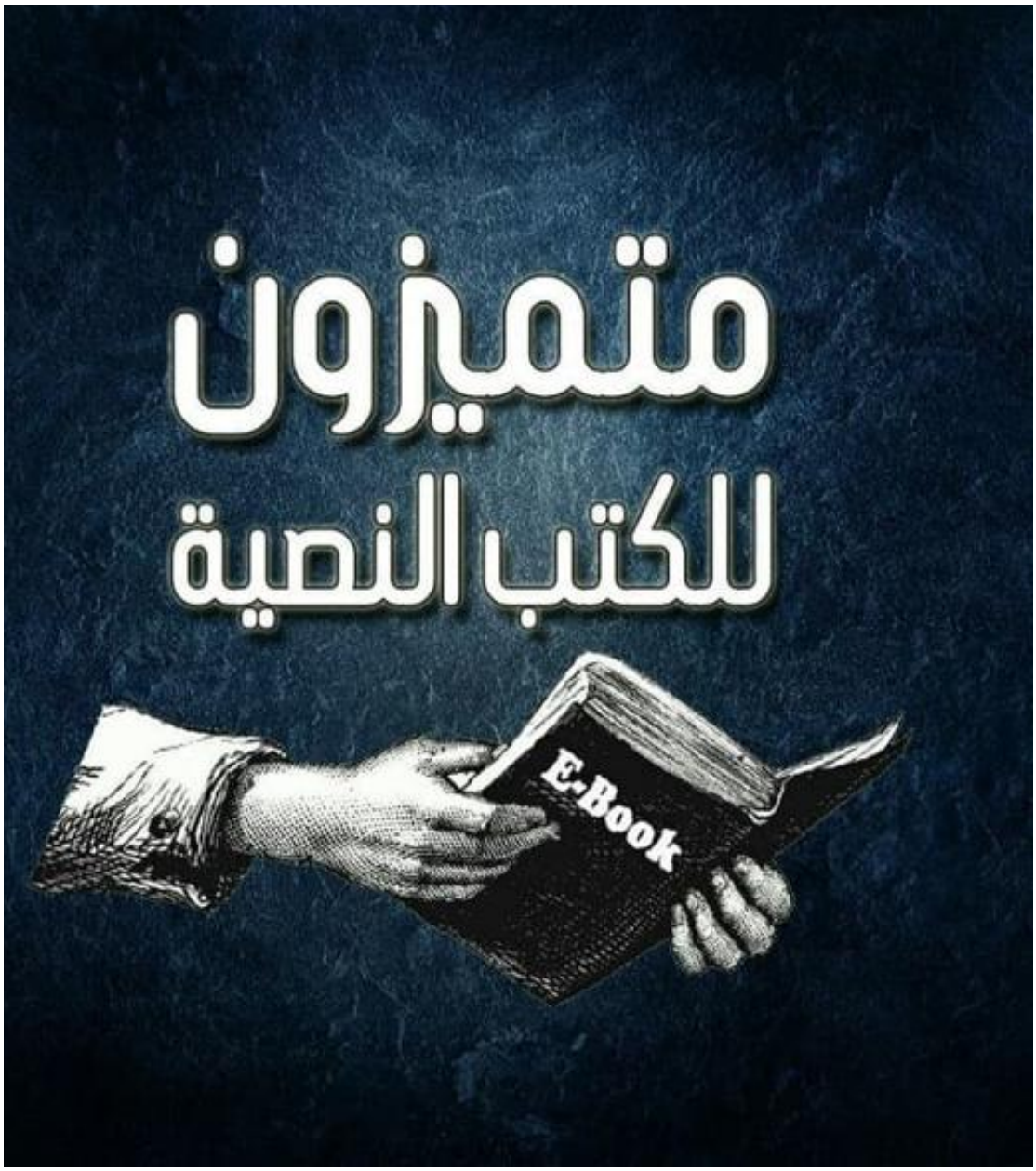
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

نبذة عن الرواية..

- ١ -

- ٢ -